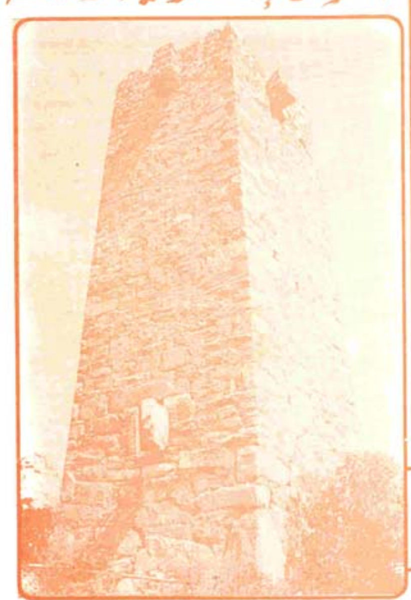
أهل السراة في القرون الإسلامية الوسيطة





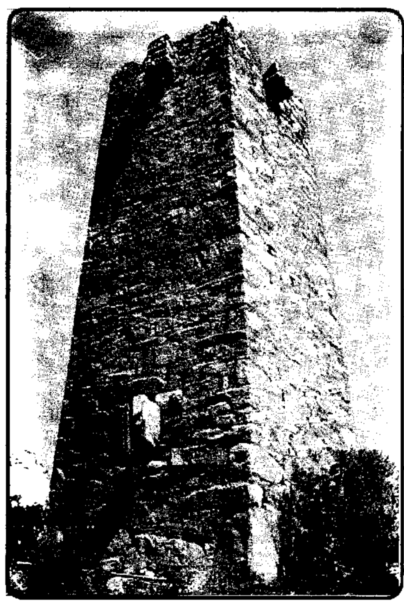
أ.د: عبدالله بن محمد أبو داهش

كلية اللغة العربية بالجنوب

الحمد لله رب العالمين وبعد فان اهل [illegible] جددوا العهد على اقامة الشريعة المحمدية
الله الذي لا اله الا هو على تنفيذ [illegible] بحكمها وهي الطريقة المحمودة [illegible] الفقيه [illegible]
بن بكري على [illegible] الشريعة المطهرة واقاموا الفقيه محمد عبدالقادر بن بكري على الاقامة وراتب
المسجد وله مشاركة [illegible] ومن عصا فعليه [illegible]
حضور جمع كثير منهم جابر بن [illegible] ومحمد بن عيسى ومساعد وحسن بن مشبب
ومحمد بن [illegible] واحمد بن فايز واحمد بن علي ومحمد بن [illegible] وعلي بن [illegible] وابراهيم بن احمد
ومحمد بن [illegible] والسيد حسن [illegible] وعلي بن حسن [illegible] ومشاري بن ابراهيم وعيسى بن عبدالله

أهل السراة في القرون الإسلامية الوسيطة





أ.د: عبدالله بن محمد أبو داهش

كلية اللغة العربية بالجنوب

..له محمد أبو داهش ، ١٤١٧هـ

..كتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

..ل، عبد الله محمد

..سراة في القرون الإسلامية الوسطى - الرياض

... ص، .. سم

ردمك ١-٧٨١-٣١-٩٩٦٠

١ - بلاد السراة - تاريخ أ - العنوان

ديوي ٩٥٣.١ ١٧/٢٢٧٢

الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

مطابع مازن - أبها - ت ٢٢٤٦٠٠٥


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي هذا البحث :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين : محمد وآله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فلقد مضى زمن على رحلتي العلمية الميدانية الأولى لبلدان جنوبي الجزيرة العربية ، وبخاصة : تهامة ، وعسير ، والتي تمّ عقدها في أواخر القرن الرابع عشر الهجري ، إذ كنت من بعد أُمني نفسي بكتابة شيء عنها ، وبخاصة عن مدينتي : تنومة ، والنماص حاضرتي قبائل رجال الحجر ، مسقط رأسي ، ومهوى مقامي :

بلادٌ بها نِيطَتْ عليَّ تمائمي وأوّل أرضٍ مسَّ جِلْدي تُرابُها[1]

وكذا قبائل السراة وأحوازها بعامة لما لها من سبق تاريخي ، ولما كنت قد جمعته عنها عبر تلك الرحلة من مادة علمية مفيدة ، فلم يكن كتابي : " الحياة الفكرية والأدبية بجنوبي البلاد السعودية " عند نشره قد استوعب المادة العلمية التي تم جمعها حينذاك . وذلك لما تتطلبه أسباب البحث العلمي عند ئذ من : الاختصار ، والتركيز ، وإلا فهناك كم هائل من المادة العلمية التي تصلح لدراسات علمية مستقلة .

أقول : إن ذلك الداعي للكتابة لم تخفت جذوته في نفسي ، ولم يكل عزمي في تحقيقه، وبخاصة أمام إلحاح أخوان لي في هذه البلاد ، الذين ودّوا من أخيهم كتابة شيء عن منطقتهم ، ولقد ظل إلحاحهم ، وأملهم في أخيهم يساير اهتمامي بالشؤون العلمية والأدبية التي انصرفت إليها ببلدان جنوبي الجزيرة العربية ميدان تخصصي العلمي الدقيق، والآن أَجد نفسي مودّاً نحو كتابة شيء عن هذه الأنحاء ، وهو ما دعا للإسهام بهذا العمل العلمي المتواضع ، ولعل الله سبحانه وتعالى يتيح فرصة استكمال مباحثه الأخرى المختلفة .

ولقد قسمت عملي في هذا البحث الموجز ستة أقسام هي : المباحث الآتية : موطن أهل السراة، وقبائلهم [الموقع ، والحدود] ، وملامح حياتهم : السياسية ، والاجتماعية، والدينية ، والعلمية ، والأدبية ، وقد وطّأت للحديث عن هذه المباحث بحديث مختصر عن تعريف هذا العنوان : ومفهومه المكاني ، والزماني ، ولم أصنع له خاتمة في آخره ، بل اكتفيت بهذه التوطئة لقصر مادة هذا العمل ، ولكونها كثيرة : التركيز ، والاختصار .

---

١ - البيت : لرقاع بن قيس الأسدي ، انظر « اللسان » لابن منظور ٩ / ٢٩٦ مادة «نوط» .

ولا أكتم سراً إذا قلت : إن هذا العمل العلمي قد استغرق مني لجمع مادته نحو أربع سنوات . وذلك لما كنت أهمّ به ، ولا أجد مادة علمية كافية حتى إذا تلقيت دعوة كريمة من سعادة محافظ مدينة النماص لإلقاء محاضرة لديهم ضمن موسم التنشيط السياحي بتلك المحافظة لعام ١٤١٧هـ ، شرعت في كتابة هذا البحث لعله يسد مسداً لم يُسد بمثله من قبل ، وليكون حلقة وصل ببحوثي الأخرى عن هذه المنطقة في العصر الحديث بما يشكل تاريخاً أدبياً وفكرياً لبلاد السراة ، والله أسأل التوفيق والسداد ، وأرجوه العون والقبول إنه الوهاب ، وأقول : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ [1] .

كتبه

عبد الله أبو داهش

بأبها

ليلة الاثنين لعلها : غرة شهر ربيع الأول المبارك
سنة ١٤١٧هـ من الهجرة على صاحبها أفضل
الصلاة والسلام بدارتي الآمنة بحي الجامعة الغربي

---

١ - سورة إبراهيم آية ٤٠ .

المصطلح : الزماني ، والمكاني :

يقال : « سراة كل شيء : أعلاه ، وظهره ، ووسطه »[١] ، « والسراة جبل بناحية الطائف ، قال ابن السكيت : الطود الجبل المشرف على عرفة ينقاد إلى صنعاء ، يقال له السَّراة ، فأوله سراة ثقيف ، ثم سراة فهم ، وعَدْوان ، ثم الأزد ثم الجرُ آخر ذلك» [٢] ، لذا فلفظ السراة المضاف إليه لفظ أهل في العنوان يتسق مع هذا التعريف السابق ، فهو جماع البلدان المنتشرة عبر هذا الجبل الواسع المديد ، إذ كل : « قبيلة تحاذي السراة تضاف إليها إحدى السروات لتصبح مشهورة بها »[٣] ، « وقد يقال فيه السروات لأن كل قسم منه يُنسب إلي قبيلة ، ويدعى سراة »[٤] ، فيقال : سراة عبيدة ، وسراة رجال الحجر ، وهكذا . . .

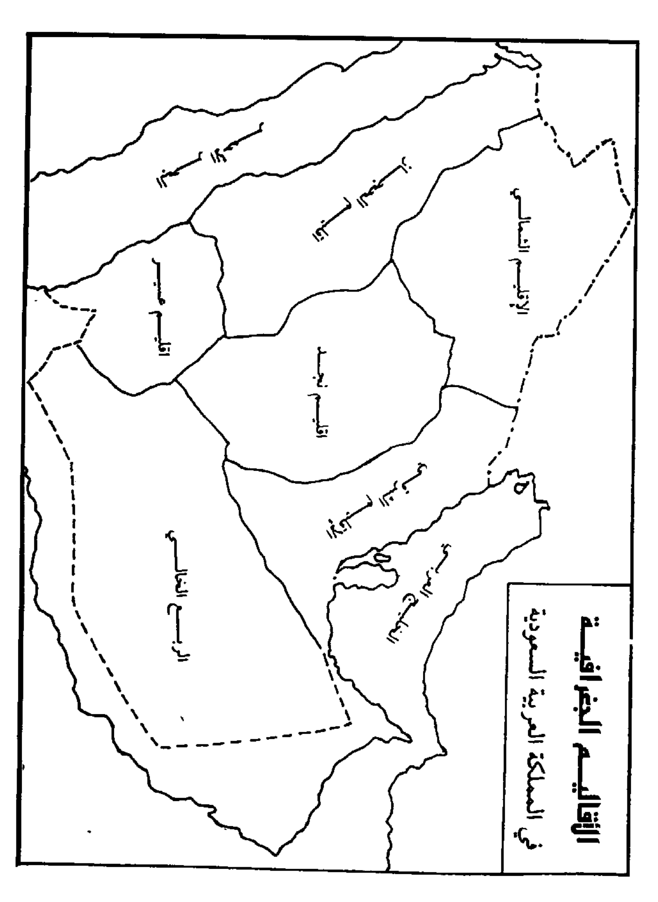
ويتسق مفهوم مصطلح هذا العنوان المكاني في اتصال قبائل تلك السروات من الجنوب إلى الشمال عبر هذا الطود العظيم ، الذي تسكنه في زماننا قبائل : قحطان ، وشهران ، وعسير ، ورجال الحجر ، وبللقرن ، وعليان ، وشمران ، وخثعم ، وغامد ، وزهران ، وبجيلة بني مالك[٥] ، وينضم إلى تلك القبائل تهائم كل منها ، فيما يتصل بسفوحها الغربية ، يقول الشاعر :

وهذا الطود طودُ الغَوْرِ منكم ودونَ الطَّودِ أركانُ الجبالِ[٦]

وينطوي تحت تلك الأصول فروع قبلية واسعة أتى على نسبة بعضها المؤرخ السّمعاني في كتابه : « الأنساب » ، حيث قال - على سبيل المثال - الزبيدي ، الأحمري ، الجهضمي ، السلاماني ، البارقي ، القرني ، الفُزعي ، الدَّوسي ، التبالي[٧] وهكذا ، وربما ذهب بعض مؤرخي الحجاز إلى تحديد هذا المفهوم المكاني بقول أحدهم : الحجاز الأعلى ، وهو يريد جبال السروات ، أو الشرق[٨] ، وهو يقصد أيضاً قبائل السراة ، وهكذا . . .

---

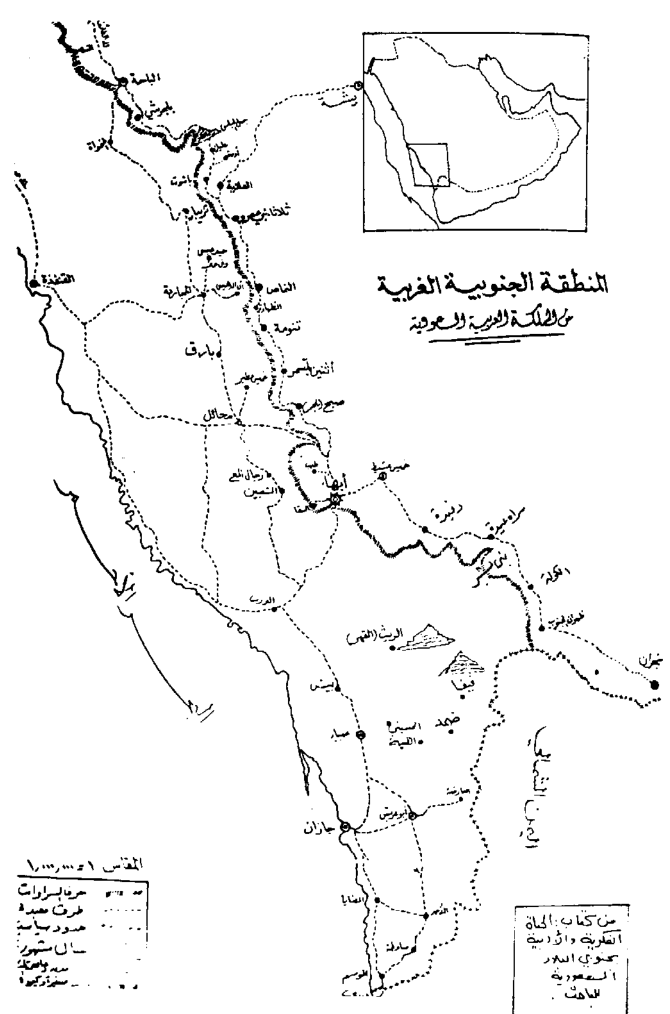
١ - ابن منظور ، « لسان العرب » ١٩ / ١٠١ .
٢ - المصدر نفسه ١٩ / ١٠٦ ، وفيه الجرّة ، وصوابها ما أثبت ، قال الجاسر : « الجرُ ويطلق على سفوح السراة ... وقد وردت كلمة الجرُ محرفة إلى الحرة في كثير من الكتب » «في سراة غامد وزهران» ٣٥٥ .
٣ - عبد الله ثقفان ، « سراة عبيدة » ١٢ .
٤ - سيد أحمد يونس ، « لمحات من تاريخ عسير القديم » ٩ .
٥ - عمر غرامة العمروي ، « حول قبيلة الحجر » العرب ، ج٩ ، ١٠ ، س١٠ (الربيعان ١٣٩٦هـ) ٤٦ .
٦ - البيت لرجل من بني عمرو بن الغوث ، انظر : « صفة جزيرة العرب » للهمداني ٢٠٧ ، ٢٠٨ .
٧ - ٩/ ٢٤٨ ، ١/ ١٤٥ ، ٣/ ٣٩١ ، ٧/ ٢٠٧ ، ٢/ ٣١ ، ١٠/ ١١٥ ، ٩/ ٣٠٠ ، ٤/ ٣٦١ ، ١٣/ ١٧ ، عدا النسب إلى عسير فلم يورده السمعاني في كتابه « الأنساب » الذي بين أيدينا الآن .
٨ - العصامي « سمط النجوم » ٤ / ٤٩٢ .



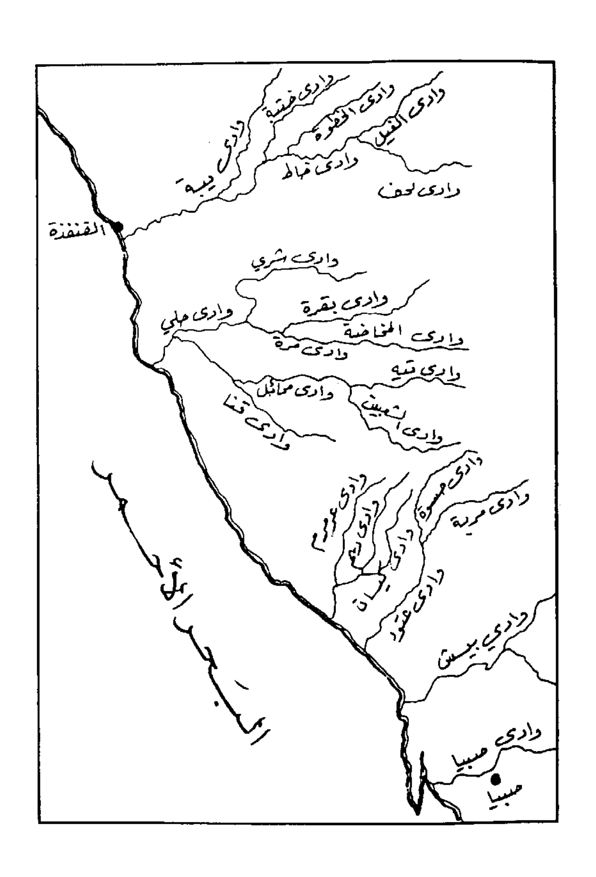
نقلاً عن أطلس المملكة العربية السعودية (جامعة الملك سعود)
من كتاب : « قبائل إقليم عسير في الجاهلية والإسلام » للعمروي



المنطقة الجنوبية الغربية من المملكة العربية السعودية

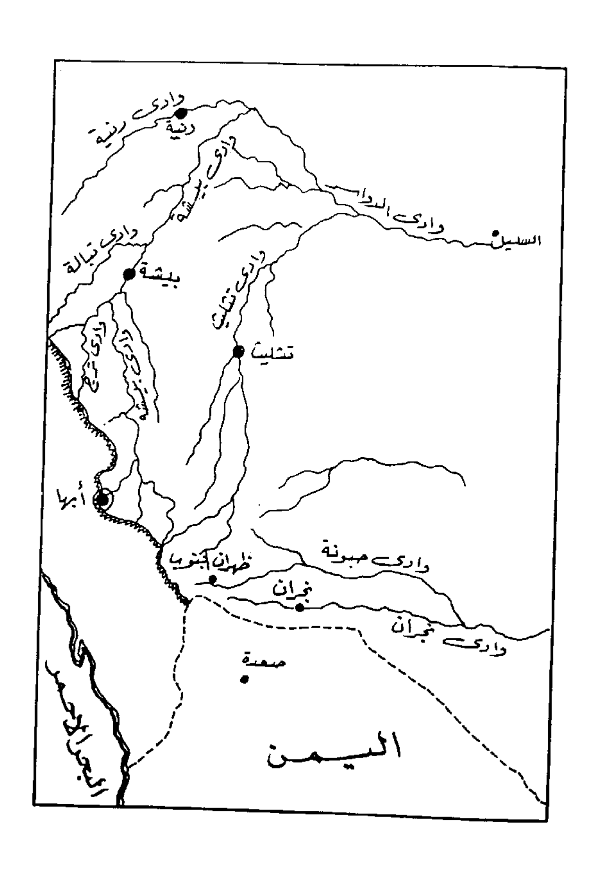


من كتاب : « الحياة الفكرية والأدبية بجنوبي البلاد السعودية » للباحث



أودية عسير في تهامة

من كتاب : « قبائل إقليم عسير في الجاهلية والإسلام » للعمروي



أوديــة عسيــر فــي الســراة

من كتاب : « قبائل إقليم عسير في الجاهلية والإسلام » للعمروي

ويزيد في تحديد مفهوم هذا المصطلح المكاني حديث المؤرخ عبد الله بن علي العمودي[1] (١٢٧٨ - ١٣٩٨هـ) الذي قال : « اتفقنا ببعض عرب الحجاز وسألناهم عن القبائل ... واتصالهم ببعضهم بعضاً فأملوا علينا ... [بني] مالك ، ويليهم زهران ، ثم غامد ، ويليهم خثعم ، وبعدهم عليان شمران ، ثم شمران ، ويليهم [بللقرن] ، وبعدهم : بنو عمرو ، ويليهم بنو شهر ، ويليهم بللسمر »[2] ، ثم بللحمر[3] ، وأضاف العمودي إلى ذلك قوله :« وبعدهم قبائل عسير »[4] ، ويستقيم بعد ذلك ذكر بقية بلدان السراة : شهران ، وقحطان ، حتى : بلدة المهجرة : « أول أعمال اليمن بينها وبين صعدة عشرون فرسخاً »[5] ، قال ابن خرذاذبة في هذا الشأن :« وفيما بين سروم راح والمهجرة طلحة الملك شجرة عظيمة تشبه الغرب غير أنها أعظم منه ، وهي الحد ما بين عمل مكة ، وعمل اليمن »[6] ، وفسّر ذلك مقبل الذكير بقوله :« وأشار إلى ذلك الهمداني أيضاً ، قال ابن خرذاذبه وكان النبي ﷺ حجز بها بين اليمن ومكة »[7] .

وحيث ذكر العمودي قبائل عسير فإنما يأتي هذا متسقاً مع رؤيته المعاصرة التي تقتضي عد عسير اصطلاحاً جغرافياً حديثاً : « اقتضاه الأمر الواقع بقيام إمارات حديثة فصلته عن الحجاز واليمن »[8] ، وحينما أورد ذكرها الهمداني في القرن الرابع الهجري بقوله :« يواطن حزيمة من شأميها عسير »[9] ، وعدد أوطانها ، فإنما أراد عسير القبيلة لا الإقليم الحديث اليوم ، لذا يمكن القول إن : « اسم عسير اصطلاح جغرافي حديث ، وقد كانت هذه البقعة من الأرض الواقعة بين الحجاز واليمن تسمى السراة »[10] أو السروات وهو ما أخذنا به في هذا البحث عند حديثنا عن أهلها في القرون الإسلامية الوسيطة بما يحدد المصطلح ويدل عليه ، إذ هي : « أرض عالية ، وجبال مشرفة على البحر من المغرب ، وعلى نجد من المشرق »[11] .

---

١ - انظر ترجمته في كتاب :« الأدارسة في تهامة » للعمودي ، تحقيق عبد الله أبو داهش ١٦-٣٣ .
٢ - « نبذة في الأنساب لمن سكن بحضرموت » مخطوط غير مرقم الأوراق .
٣ - لم يرد في المصدر السابق ، وإنما هو من لدن الباحث .
٤ - كتابه السابق ، غير مرقم الأوراق .
٥ - ياقوت الحموي ، « معجم البلدان » ٥ / ٢٢٩ ، قال الرداعي

ثم طوت أنجد معرضينا   طيّ يد الشحاحة المنينا
تغشى إلى مهجرة الحزونا   حيث ترى بريدها رهينا

الهمداني ، كتابه السابق ٢٥١ ، وقال عند ئذ الهمداني :« ومهجرة قرية في المنضج » المصدر نفسه ٢٥١ .
٦ - مقبل الذكير ، « حوادث عسير واليمن والحجاز » مح١ .
٧ - المصدر نفسه مح ١ .
٨ - المصدر نفسه مح ١ .
٩ - « صفة جزيرة العرب » ١١٨ .
١٠ - مقبل الذكير ، « حوادث عسير واليمن والحجاز » مح ١ .
١١ - أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني ، « مختصر كتاب البلدان » ٣٢ .

أما المفهوم الزماني لمصطلح هذا العنوان في قولنا : القرون الإسلامية الوسيطة ، فيراد به العصور التاريخية الإسلامية المبتدئة بالقرن الرابع الهجري حتى نحو القرن الثاني عشر الهجري ، حيث كان لهذا التحديد مسوغات يمكن قبولها لدراسة هذا الموضوع الذي بين أيدينا الآن ، ومنها واقع ما اصبحت عليه البلاد الإسلامية يومئذ من اتساع ، وتفرد بالولاية المحلية في كثير من بلدانها ، ومنها بلدان الجزيرة العربية ، وبخاصة هذه الأقاليم المحلية المنتشرة في أرجائها ، بما جعل لها شيئاً من التفرد السياسي القبلي المحدود ، بالإضافة إلى تواضع مستواها الفكري ، وما يفتقر إليه واقعها العلمي من : المصادر، والمعلومات ، حيث ندرت المادة العلمية المناسبة المقبولة لبناء هذه الحياة الفكرية ، وإذا وجد شيء من مادتها العلمية ، فإنما هي ومضات محدودة قد تصلح لتمثيل هذا الزمن التاريخي الواسع ، بما يخفف من التشدد في ضرورة التقسيم ، ودراسة العصور الإسلامية المعروفة عند الباحثين في تاريخ هذه الأمة الإسلامية الزاهر المعروف ، ولذلك كان هذا التجاوز في طول هذه الفترة ، وكثرة قرونها ، واتساع زمنها ، إذ المراد منها في هذا الدرس جمع تلك المعلومات والتأليف بينها علها تلقى الضوء على حياة الأهلين في هذا الصقع المنسي من بلدان الجزيرة العربية .

وأما أن هذه الدراسة المختصرة تنتهي بنحو : القرن الثاني عشر الهجري فذلك لأن هذه البلاد قد آذنت بحلول العصر الحديث ، ولأنها قد دخلت في حكم الدولة السعودية الأولى آواخر هذا القرن نفسه ، إذ شهدت هذه الأجزاء من جزيرة العرب صحوة فكرية على أثر ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية فيها ، وتعود فكرة هذا البحث أيضاً إلى تلك التساؤلات الكثيرة التي تُثار حول طبيعة الحياة الفكرية والعلمية والأدبية في بلدان السراة عبر تلك القرون الإسلامية الوسيطة ، فقد مر عدد من دارسي الفكر والأدب على ذكر هذه الأنحاء ، ولكنهم لم يخصّوها إلا بعبارات قليلة عامة عن ضحالة حياتها العلمية وضعفها ، وإذ أدرك الباحث أن هذه الآراء لم تبن على استقراء علمي دقيق لهذه الحياة ، فقد رأى أن من البر بتاريخ الفكر في جزيرة العرب أن يقوم بهذه الدراسة المتواضعة ، لعله يُلقي الضوء من خلالها على ملامح تلك الحياة العلمية المهملة المنسية ، ولكي يتجنب الباحث ما وقع فيه بعض الكتاب من التعميم ، فقد رأى أن تكون هذه الدراسة محددة من حيث : المكان ، والزمان ، وهو ما تم الأخذ به في هذا العمل العلمي المتواضع .

المبحث
الأول

مواطن أهل السراة ، وقبائلهم : [الموقع ، والحدود] .

يفصِّل الهمداني في ذكر هذه المواطن في كتابه : « صفة جزيرة العرب » فيقول : «فالنجد ما أنجد منها عن السراة ، وظهر من رؤوسها ذاهباً إلى المشرق في استواء دون ما ينحدر إلى العروض ، وحجاز هو ما حجز بين اليمن والشام ، وسراة هو ما استوسق، واستطال في الأرض من جبال الجزيرة مشَّبهاً بسراة الأديم »[١] ، ويضيف إلى ذلك قوله «أما جبل السراة .. فإنه ليس بجبل واحد ، وإنما هي جبال متصلة»[٢] ويحدد مبتدأه فيما يتصل بهذا البحث ، فيقول : « ثم يتلوها سراة جنب ، وبلد العرّ المعصور ، وقرية جنب في هذه السراة الكبيبة ، وقال رجل جنبي ، وقد جنه الليل في بلد بني شاور :

إلى ضوء نار بالكبيبة أوقدت ... إذا ما خبت عادت فشب ضرامها

●●●

غدا بيننا عرضُ الفلاةِ وطولها ... فداري يمانيها وداركِ شأمُها

فإن أكُ قد بُدلت أرضا بموطني ... يمانية غرباً أريضاً مقامها

وأقطع مخشي البلاد بفتية ... كأسد الشّرى بيض جعاداً جمامُها»[٣]

وقال : « ثم الجبل الأسود إلى الشقرار وسعيا من أرض جُرش ، وغور هذه البلاد هي : أعلى زنيف ، وضنكان ، والبرك ، والمعقد ، وحرة كنانة ، ووسط أرض طود ، وحقوفتان... ثم يتلوها سراة عنز وسراة الحجر ، نجدها خثعم وغورها بارق ، ثم سراة باه من الأزد ، وبنو القرن ، وبنو الخالد نجدهم خثعم، وغورهم قبائل من الأزد ، ثم سراة الحال الشكر نجدهم خثعم وغورهم قبائل من الأسد بن عمران ، ثم من سراة زهران من الأزد : دوس، وغامد، والجرّ نجدهم بنو سواءة بن عامر وغورهم لهب، وعويل من الأزد، وبنو عمرو، وبنو سواءة خليطاً والدعوة عامرية، ثم سراة بجيلة، فنجدها بنو المعترف »[٤].

وإذا كان الهمداني قد تحدث عن بلدان السراة التي انتظمت جبالها قبل الغور ، فإنه قد بسط الحديث عن بلدان هذا الطود التي أنجدت عن السراة ، وانداحت عنها قِبَل الشرق، ، يقول : « وفي أعلى السراة إلى سراة جنب وفي نجدها يتصل ببلد وداعة »[٥]،

---

١ - الهمداني ، « صفة جزيرة العرب » تحقيق محمد بن بليهد النجدي ٥٠ ، والأديم : وجه الأرض .

٢ - المصدر نفسه ٦٧

٣ - المصدر نفسه ٧٠

٤ - المصدر نفسه ٧٠ ، ٧١

٥ - المصدر نفسه ١١٥

و : « ليام وطن بنجران نصف ما مع همدان منها ، ثم بلدهم يطرد عليها ناحية الحجاز إلى حدود زُبيد ونهد ... »[١] ، وقال : « أصواب قران بلدة في الحُمْرَة من المختلف ، ويسمى المختلف المنتشر ، ومن ديارهم سروم العقدة ، وسروم العين ، وسروم الفيض ، وهي سروم الطرفاء ، والسفسف مع الجبلين وعراعرين ، والقرحاء ، والثجة ، ذات عش ... والجبل الأسود ، وهو معظم بلد جنب ، وهو ما بين منقطع سراة خولان بحذاء بلد وادعة إلى جُرش ، وفيه قرى ومساكن ومزارع ، وهو يُشبّه بالعارض من أرض اليمامة ... والقريحاء حذاءها لبني عبيدة »[٢] ، وقال : « بلد بني نهد : طريب ، ومصابّه من ذوات القَصص وكُتنه [٣] ، واستشهد بعد ذلك بأبيات لا تخلو من الحكمة ، إذ قال :

«إلى اللّه أشكو أنه صار حزبنا ... كقصم سليم السّنّ مالَهْ جابر

●●●

فمن كان يرجو العز في قتل قومه ... فلم ينج خوف الذّل مما يحاذر
ينال العدى من قومه ما يُضيمه ... ويمشون في مكروهه وهو حاضرُ»[٤]

ويستطرد الهمداني ، فيقول : « فأوطان عسير إلى رأس تية وهي عقبة من أشراف تهامة ، وهي أبها ... والدارة ، والفتيحا ، واللصبة ، والملحة [والملاحة] ، وطبب ... ومن النجدي : أوطانها : الرفيد بلد حصون وزروع لعنز ... وسعيا ويسكنها البشريون من الأزد ، وقد يقال : إنهم من بلحارث ثم يصلاها عُنْقة ويسكنها بنو عبد الله بن عامر ابن عنز ، ثم تندحة ، وهي : العين من أودية جرش ، وفيها أعناب وآبار ، وساكنه بنو أسامة من الأزد ، ورأيت بعضهم ينجذب إلى شهران العريضة ، والعَيْبَا بلد مزارع لبني أبي عاصم من عنز ، ويليها وادي طلعان كثير المزارع لبني أسد من عنز ، والقرعاء لشيبة من عنز »[٥] ، وأضاف الهمداني إلى ذلك قوله : « فالرفيد يسكنه حازمة من عنز ، والعوص يسكنه بنو حديد من عنز ، والراكس يسكنه بنو غنم من عنز ، والعين يسكنه بنو العَراض من عنز ، وتمنية يسكنها بنو مالك من عنز ، والمسقى لشيبة من عنز »[٦] .

وقال الهمداني من بعد ذلك :« ثم يتلوه سراة عنز سراة الحجر بن الهنوبن الأزد ، ومدنها : الجهوة ، ومنها : تنومة ... ثم يتلوها سراة غامد ، ثم سراة دوس »[٧] ، وتعرض من بعد ذلك لأعراض نجد ، فذكر : بيشة ، وترجا ، وتبالة [٨] ، وعلى الرغم من وجود

---

١ - المصدر نفسه ١١٥ .
٢ - المصدر نفسه ١١٥ ، ١١٦ .
٣ - المصدر نفسه ١١٦
٤ - المصدر نفسه ١١٧
٥ - المصدر نفسه ١١٨
٦ - المصدر نفسه ١١٨
٧ - المصدر نفسه ١١٩
٨ - المصدر نفسه ١١٩

شيء من الاضطراب التاريخي في هذا العرض المكاني يظل منهج الهمداني في كتابه : « صفة جزيرة العرب » أقرب المصادر لواقع هذه المجتمعات السَّرْوية ، وهو منهل ثرّ للمعلومات المفيدة المناسبة .

ويستفيض الحديث بالهمداني فيقول مبيناً مواطن السَّرْويين تجاه اليمن : « أرض السراة ، ثم يتلو معدن البرام ، ومُطار صاعداً إلى اليمن : سراة بني علي ، وفهم ، ثم سراة بجيلة ، والأزد بن سلامان بن مفرّج ، وألمع ، وبارق ، ودوس ، وغامد ، والحجر إلى جُرَش »[1] وإذا كان قد اضطرب هنا ترتيب هذه المواطن بين السراة ، وتهامة . فإنما ودّ الهمداني - فيما يبدو - شمول الحديث بذكر هذين القسمين . ولما فرغ من ذكرهما عاد مرة أخرى إليهما مُفصلاً ومبيناً مواقعهما في حديثه عنهما نحو مكة المكرمة ليقول «بطون الأزد ، مما تتلو عنز إلى مكة منحدراً : الحجر باطنها في التهمة : ألمع ويرفى ابنا عثمان في أعالي حلي ، وعشم ، وذاك قفر الحجر ، وتنومة ، والأشجان ، ونحيان ، ثم الجهوة : قرى لبني ربيعة من الحجر ، وعاسرة العرق ، وأيد ، وحضر ، ووراءه قرى لبني ربيعة من أقصى الحجر أيضاً ، وحلبا قرية لبني مالك بن شهر قبلة الحجر على هذا يمانيها مصال لعنز ، ومن شآميها بلد ألوْس ، والفزع من خثعم ، وشرقيها ما جاوز بيشة من بلد خثعم ، وأكلب ، وغوريها بلد بارق »[2] .

وتنال قبائل رجال الحجر من هذا الجغرافي المؤرخ عناية خاصة تتمثل في قوله : « فأول بلاد الحجر من يمانيها : عبل واد فيه الجبل ساكنه بنو مالك بن شهر ، وصبح وادي زرع ، وباطنه بهوان وادي زرع وأعناب ، وساكنه بنو شهر ، وباحان به القرى والزرع وساكنه بنو مالك ، وبنو ثعلبه ، وبنو نازلة من بني مالك بن شهر بن الحجر ، وذبوب وادٍ لبني الأسمر من شهر ، ثم الرهوة : رهوة بني قاعد من العدمين من بلاد شهر قرية شعفية على رأس من السراة ، ثم سدوان وادٍ فيه قرية يقال لها رحبَ لبني مالك بن شهر »[3] ، ثم قال : « تنومة وادٍ فيه ستون قرية أسفلها لبني يسار ، وأعلاه لبلحرث بن شهر ، ثم الأشجان قرية كبيرة ليس في السراة قرية أكبر منها بعد الجهوة ، وساكنها بنو عبد من بني عامر من الحجر ، ثم نحيان واد مستقبل القبلة »[4] ، وذكر بعد ذلك : الجهوة ، والعرق ، وأيد ، وهي صدر أيد اليوم ، والخضراء ، وحلباء [5] ، وختم حديثه بذكر بعض أحواز سراة الحجر في تهامة ، فقال : « ووادي ساقين إلى تهامة محجة الحجر التهامية ، وساكنه من الحجر

١ - المصدر نفسه ١٢١ .
٢ - المصدر نفسه ١٢١
٣ - المصدر نفسه ١٢١
٤ - المصدر نفسه ١٢١ ، ١٢٢
٥ - المصدر نفسه ١٢٢

جبيهة جبهة الحجر ، العديف عقبة تنصب مياهها إلى خاط وادٍ وساكنه بنو عامر الغورية من الحجر»(١). ولربما لحظ الناظر في قول الهمداني السابق فأدرك لفظ شهر في أسماء بعض ساكني بلدان قبائل : بللحمر ، وبللسمر ، مما هو معروف اليوم في مواطن تلك السروات ، فإنما هو لا يعدو في نظري توافق أسماء وحسب ، إذ يشترك الناس فيها ، وبخاصة في الأسر ، أو البيوتات ذوات الصلة بوشائج القربى أو الصداقة أو نحو ذلك ، يقول أحد الباحثين :« ووما يلاحظ على الهمداني - رحمه الله - أنه ينسب بعض سكان بللسمر وبللحمر إلى شهر مع أنّ الواقع خلافه ، ويحتمل أن شهر بللسمر على اسم شهر بني شهر ، وليس ذلك ببعيد فإنه قد كرر اسم مالك في بللحمر ، وبللسمر فيمكن تكرر شهر كذلك أو كانت غلطة راو فأخذ به »(٢).

وإذا تم الوعي بمواطن هذه البلاد السَّرْوية عند بداية هذه الدراسة المختصرة في القرن الرابع الهجري أمكن الآن النظر في حدود تلك المواطن ، وما يتصل فيه سكانها من نسب أو حلفٍ ، يقول العمودي : إن مخاليف جنوبي الجزيرة العربية سبعة مخاليف ، منها : «المخلاف السادس : مخلاف قحطان ، وأهل الحجاز بلاد الكراع : الخيل والإبل من صعدة إلى مكة المكرمة» (٣) ، ومن بلاده : قبائل عسير (٤) ، « وفيه من المدن القديمة كريان لبني هلال من بلاد قحطان ، فيها معدن الرصاص الأبيض ، ومعدن الحديد ، وفيها مدينة قديمة من جهة الطائف فيها أشجار وأنهار ، وأثمار ، وهي أحسن هذا الأقليم»(٥) ، ولعلها مدينة الجهوة التاريخية المشهورة ببلاد بني شهر ، وقال العمودي من بعد ذلك : «وهذه البلاد فيها جملة معادن ، وفيها الرِّجال : الشجعان ، والفصحاء ، والبلغاء ، وقوة القلوب ، والعزّ ... »(٦) .

وفي هذا المخلاف يُذكر نجران : إذ يعد : مدينة تاريخية معروفة « بناها نجران بن زيدان ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، بها نخيل ، وتشمل على أحياء من العرب ... عن صنعاء عشر مراحل»(٧) ، وهي : « صقعٌ منفرد عن اليمين »(٨) ، وقد عدَّها ابن خرداذبه : من مخاليف مكة ، وقال : « الطائف ، نجران ، بيشة ... جُرش السراة »(٩) . وفي اللسان : « نجران موضع بين اليمن والحجاز »(١٠) .

١ - كتابه السابق ١٢٢ ، ١٢٣ .
٢ - سعيد بن عوض الأسمري : « تاريخ رجال الحجر » مكتوب بالآلة الكاتبة لم ينشر ١٦ .
٣ - « تحفة القارىء والسامع » مخطوط ١٧ .
٤ - المصدر نفسه ١٧   ٥ - المصدر نفسه ١٧   ٦ - المصدر نفسه ١٧ .
٧ - القرماني : « أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ » ٤٩ ، ٤٩١ .
٨ - العقيلي ، « نجران في أطوار التاريخ » ٥٤ .
٩ - المصدر نفسة ٥٥   ١٠ - ابن منظور ٣ / ٥٨٦

وفي مدينة ظهران الجنوب : « قبيلة وادعة والتي تنحدر من سلالة عريقة ، فهم : أبناء وادعة بن عمرو بن عامر بن ناشح بن جشم بن حاشد بن همدان بن زيد ... »[1] ، قال هاشم النعمي : « قبيلة وادعة من القبائل العربية التي ظهر عليها الإسلام وهي على سطح هذا الإقليم الجنوبي من منطقة عسير السراة ، ويحدُها من الجنوب : الشريط الحدودي للمملكة العربية السعودية مع الجمهورية العربية اليمنية ، ومن الشمال : بلاد سنحان ، ومن الغرب : تهامة آل السَّرى من جنب بني سعد ، ومن الشرق : منطقة نجران الشمالية »[2] ، و : « قبيلة الحباب إحدى قبائل قحطان الرئيسية تنتسب إلى الحباب بن عبد الله بن سنحان من مذحج من قحطان ، وتنقسم إلى قسمين كبيرين هما : آل مسلّم بن حباب ، وآل هُوَيج بن حباب »[3] ، « وبنو عبيدة بن مذحج ، وعبيدة اسم إمرأة ، وهي عبيدة بنت مهلهل التغلبي ، تزوجت في جنبٍ فنُسب ولدها إليها ، ومنهم أصحاب الجوف »[4] و « بنو بشر نسبة إلى بشر بن حرب بن سعد العشيرة »[5] .

ويختلف الدارسون كثيراً في حقيقة نسب عسير وتحديد موقعها والتعريف بها ، وذلك لاختلاف الآراء حول أصولها ، وسبب تسميتها ، ولعل ذلك قد نشأ من تفاوت هذا المدلول عند : المؤرخين ، والجغرافيين ، والرَّحالة ، هذا بالإضافة إلى صعوبة تحديد التاريخ الزمني الذي مر به هذا المدلول ، وما خضع له من ظروف سياسية مختلفة ، فلقد أتى ذكر عسير في كتابات الجغرافيين [6] المسلمين - كما يقول أحد الباحثين المعاصرين [7] - ضمن ذكرهم لمناطق : اليمن ، والحجاز ، ونجد [8] ، ولعل من أقدم الجغرافيين الذين تعرضوا لذكر عسير : الهمداني [9] (٢٨٠ - ٣٣٤هـ) الذي يقول « ... ثم يواطن حزيمة من شاميها عسير : قبائل من عنز ، وعسير يمانية تنزرت ، ودخلت في عنز ، فأوطان عسير إلى رأس تيّة ... »[10] ، ولقد عدَّ مؤلف كتاب : « عسير » ما ذكره الهمداني : « أول مفهوم لحدود عسير عند الجغرافيين المسلمين »[11] ، إذ رأى هذا المؤرخ :

---

١ - محمد مهاوش مسفر الوادعي ، « ظهران الجنوب أصالة الماضي وروعة الحاضر » بدون رقم للصفحة .

٢ - « وادعة : نسبها وبلادها » العرب، ج٩, ١٠ ، س٢٧ (الربيعان ١٤١٣هـ) ٦٠٢ .

٣ - سعيد بن علي بن كردم ، « الحباب : فروعها وبلادها » العرب ، ح٧، ٨ ، س٢٧ (محرم وصفر ١٤١٣هـ) ٥٥١ .

٤ - الأشرف ، « طرفة الأصحاب » ٣٥ ، قال المحبي : « ومذحج هم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : مذحج هامة العرب وغلصمتها » " خلاصة الأثر " ٢ / ١١٤ ، والذين قال فيهم أيضاً رسول الله ﷺ « أكثر القبائل في الجنة مذحج » العمروي كتابه الساق ١ / ٢٤٧ .

٥ - أحمد بن حسن النعمي ، « عسير في مذكرات سليمان الكمالي » هـ ص ١٤٢ .

٦ - انظر كتاب عسير من (١٢٤٩ - ١٢٨٩ هـ) لعلي أحمد عسيري ٢٣ .

٧ - هو : علي بن أحمد عيسى عسيري في كتابه السابق .

٨ - المرجع السابق ٢٣ .

٩ - الحسن بن أحمد الهمداني ، انظر ترجمته في «الأعلام» للزركلي ٢ / ١٧٩ .

١٠ - كتابه السابق ١١٨ .

١١ - علي بن أحمد عسيري ٢٤ .

« أن كلّ ما أورده الجغرافيون المسلمون عن عسير جاء من خلال ما كتبوه عن أقسام شبه الجزيرة العربية [1] ، وقد عدّ منهم : البكري ، والمقدسي ، والإدريسي ، وابن حوقل ، والاصطخري[2] ، وإذا أمعنا النظر في حقيقة هذا المسمى عبر هذه القرون الإسلامية الوسيطة ألفينا أن اسم عسير يومئذ يطلق : « على أربع قبائل من مجموعة القبائل العربية القديمة التي ظهر عليها الإسلام ، وهي في مواقعها على سطح منطقة عسير المعروفة قديماً بمخلاف جرش [3] ، وتلك القبائل الأربع هي : ولدُ أسلم ، وهم ما يطلق عليهم اسم : بني مغيد [و] [4] علكم ، وهم : أبناء أسلم بن عليان بن عسير بن عبس بن شحارة بن غالب بن عبد الله بن علك بن عدنان »[5] ، « ورفيدة ، وهم أبناء رفيدة بن سبيعة بن عليان بن عسير بن عبس بن شحارة بن غالب بن عبد الله بن علك بن عدنان »[6] ، و «بنو مالك ، وهم : أبناء مالك بن عبس بن شحارة بن غالب بن عبد الله بن علك بن عدنان»[7] ، وهذا القول الذي ذهب إليه المؤرخ هاشم النعمي يخرج عسير من الظن بنسبها للأزد ، وأنها من علك بن عدنان : « إحدى القبائل العدنانية الكبرى ، نزح جدها الأعلى علك بن عدنان من الحجاز إلى بلاد الأشعريين بتهامة واستوطنها ، وتزوّج في الأشعريين ، فصارت دار علك والأشعريين واحدة » [8] ، ولم يلق هذا القول قبولاً كبيراً عند كثير من المهتمين بالأنساب ، مما يجعل البحث في ميدانه مستمراً حتى تتبين حقيقته ، ولقد أصبح اسم عسير القبيلة في العصر الحديث علماً على معظم بلدان السّراة « من باب إطلاق اسم الساكن على المكان » [9] كما سيأتي بيانه في آخر هذا الحديث .

أما قبائل رجال ألمع ، فـ : « يرجعون في أصولهم إلى ألمع بن عمرو من شنوءة من الأزد »[10] ومساكنهم في غور قبائل عسير السابقة ، وفي غورها أيضاً تقع محايل ، و : « ترجع تمسيتها تاريخياً كما يُقال إلى رجل يسمى محايل ، حيث جاء إلى قرية المخيضر (جبل المخيضر) لشراء أغراض له ، وأثناء عودته بما حمله أُعتدي عليه ، وسلب ما معه ، فقال مقالته الشعرية :

فلا بد يا قرن المخيضر تسمّى محايل

ولا بد من عصبة خالدية

تجر القنا كيداً لمن كان كايد

١ - المرجع نفسه ٢٤ .
٢ - المرجع نفسه هـ ص ٢٤ .
٣ - وهاشم سعيد النعمي ، « عسير قبيلة وبلاداً » ، العرب ، ح ٣,٤ ،س٢٧ (رمضان وشوال ١٤١٢هـ) ١٨١ .
٤ - زيادة من الباحث .
٥ - المرجع السابق نفسه ١٨١ .
٦ - المرجع نفسه ١٨١ .
٧ - المرجع نفسه ١٨١ .
٨ - المرجع نفسه ١٨٢ .
٩ - المرجع نفسه ١٨٢ .
١٠ - انظر : « التقرير السنوي للخدمات الصحية بمنطقة رجال ألمع لعام ١٤١٢هـ» ١٩ .

وبعد ذلك جمع الجموع وغزا بهم قرن الخيضر فاحتله واسماه باسمه» [١] ، « وقبيلة بارق التي يقع سوق حباشة في بلادها لا تزال معروفة مستقرة في مواطنها القديمة التي هي في غور سراة : عنز ، والحجر ، وهي أزدية قحطانية» [٢] .

وحيث : يقصد بشنوءة : عبد الله بن نصر بن الأزد ، إذ هو لقب له [٣] ، فإن هذا اللقب قد أضيف إلى الجبال المعروفة به شمالي أبها[٤] ، وفي : « قبيلة بني رزام إحدى فروع قبيلة بني مالك عسير » [٥] ، ففي : « مواطنها تقع جبال شهود شنوءة ، وبالقرب منها جبل شنوءة الأزد »[٦] ، والنسبة في الأزد إلى أزد شنوءة المذكورين [٧] ، ومنهم عدد غير قليل بهذه النسبة ، « ولايزال [كما قيل في أحد المصادر[٨]] لأصولهم إلى الآن بقايا في عسير كآل سالم بن عوف الذي منه قبيلة عنز »[٩] .

أما قبائل رجال الحجر الواقعة شمالي سراة عنز فهي تمثل في تلك الفترة أربع قبائل رئيسة ، هي : بنو عمر ، وبنو شهر ، وبللسمر ، وبللحمر ، وفي ذلك يقول هاشم النعمي : « هذا الاسم يطلق على أربع قبائل من مجموعة القبائل العربية القديمة التي ظهر عليها الإسلام ، وهي في مواقعها على سطح سلسلة جبال السراة ... وتنتشر هذه القبائل الأربع في مساحة تمتد من الجنوب من وادي عِبِل - بكسر العين والباء - حتى بللقرن في الشمال ، وهذا الامتداد الطولي يُقدر بحوالي مائة وتسعين كيلاً تقريباً ، وتنداح شرقاً إلى وادي ترج ، فحدود بيشة الجنوبية ، كما تنحدر غرباً حتى تلتقي بحدود القبائل التهامية»[١٠] ، وتقع قبائل رجال الحجر بين مدينتي الطائف وأبها ، ونسبة أهلها في : الحجر ، ثم الأزد [١١] ، قال السّمعاني : « الحجري بفتح الهاء المهملة ، وسكون الجيم ، وفي آخرها الراء ... حجر الأزد » [١٢] ، والحجر : « اسم يطلق على جذم كبير من الأزد : أزد السراة ، وهو اسم رجل ينسبون إليه ، على ما ذكر علماء النسب : حجر بن الأزد بن الهْنو من كَهْلان ، ثم من قحطان »[١٣] ، يقول السمعاني أيضاً : « الأزدي : هذه النسبة

---

١ - إدارة تعليم محايل عسير ، « مسيرة التطور في محايل عسير » ١٨ .
٢ - حمد الجاسر ، « حباشة أشهر أسواق تهامة قديماً » العرب ، ج٣ ، ٤ ، س٢٨ (رمضان وشوال ١٤١٣هـ) ٢٩١ .
٣ - «شعيب الدوسري ، « امتاع السامر » هـ ص ٨٨ .
٤ - المصدر نفسه هـ ص ٨٨ .
٥ - بنو رزام ، « سوق سبت بني رزام : الماضي والحاضر » ١٧ .
٦ - المرجع نفسه ١٧ .
٧ - السمعاني ، كتابه السابق ١ / ١٤٧ .
٨ - زيادة من الباحث .
٩ - شعيب الدوسري ، كتابه السابق هـ ص ١٧٥ .
١٠ - « رجال الحجر » ، العرب ، ج١ ، ٢ ، س٢٥ (رجب ، شعبان ١٤١٠هـ) ٧٥ .
١١ - انظر ، « بلاد رجال الحجر » لعمر بن غرامة العمروي .
١٢ - كتابه السابق ٤ / ٦٦ ، ٦٧ .
١٣ - عمر غرامة العمروي ، « أشهر أودية بلاد الحجر وجبالها » العرب ، ج٩ ، ١٠ ، س ١١ (الربيعان ١٣٩٧هـ) ٦٦٨ .

إلى أزد شنوءة بفتح الألف ، وسكون الزاي ، وكسر الدال المهملة »[١] ، «وهم ولد الأزد ابن الغوث بن النبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»[٢] ، وفي أزد شنوءة قال عبد الله بن علي العمودي : « وهؤلاء شنوءة مشهورون بكمال الخلقة البشرية ، وفي الحديث في حق موسى : كأنه من رجال شنوءة »[٣] ، وفي شأن الأزد قال : جُماعة البارقي :

حلّت الأزد بعد مأربها الغو ... ر فأرض الحجاز فالسروات [٤]

وتتصل هذه السروات في : سراة بللقرن ، وباه التي لا تعرف اليوم ، وفي سراة الحال لبني شكر من الأزد ، ونجدُها خثعم ، وغورُها قبائل أزدية أخرى [٥] .

وفي ذكر غامد قال أحد الباحثين : إنه : « اسم جد قبيلة غامد من أزد شنوءة ، وهو : غامد بن عبد الله بن كعب بن الحارث ... كانت تعرف في كتب الأقدمين بسراة غامد بالنسبة للسراة» [٦] ، ومثل ذلك زهران : « سميت البلاد باسم جد القبيلة : زهران بن

---

١ - كتابه السابق ١ / ١٩٧ .

٢ - محمد بن أحمد الحجري ، « مجموع بلدان اليمن وقبائلها » مج١ / ج١ / ٦٩ .

٣ - « تحفة القارىء والسامع » مخطوط غير مرقم الأوراق .

٤ - الهمداني ، كتابه السابق ٢١٠ .

٥ - حمد الجاسر ، « في سراة غامد وزهران » ٣٥٦ ، ولقد شهد عهد رسول الله ﷺ وفادة العديد من أبناء هذه السروات : مسلمين مبايعين . ممثلين لقبائلهم مثل وفد سلامان ، ووفود أزد شنوءة ، وعُرف منهم عند ئذ عدد غير يسير من الصحابة : المحدثين ، والفقهاء ، والقادة ، وأعقبهم خلف من التابعين العلماء بما أفضى إلى كثرة أولئك الأعلام وزيادتهم ، وبخاصة من هاجر منهم خارج الجزيرة العربية بعد الفتح الإسلامي وانتشار الإسلام ، وليس أدل على أسماء أولئك الصالحين من ذكر ألقابهم وكناهم وأسماء قبائلهم ، ولعل كتاب : « الأنساب » للسمعاني خير دليل لمعرفة هذا الجانب في تاريخنا الإسلامي ، وليس المقام هنا بمسعف لرصد ذكر أولئك الأعلام ، وعسى الله سبحانه وتعالى يسعف بهمة تنهض بهذا الشأن ، فهو القادر المعين ، ويحسن بنا في هذا المقام رصد بعض ما ذكره القاضي محمد بن أحمد الحجري في معرض حديثه عن الأزد - على سبيل المثال - إذ قال :
- وقبائل الأزد ممن سارع إلى الإسلام ، وأثنى عليهم الرسول ﷺ : قال في نثر الدر المكنون : وعن بشر بن عصمه صاحب رسول الله ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ للأزد : هم مني وأنا منهم أغضب لهم إذا غضبوا وأرضى لهم إذا رضوا ، فقال معاوية بن أبي سفيان : إنما قال ذلك لقريش ، قال بشر : فاكذب على رسول الله ﷺ لو كذبتُ عليه جعلتها لقومي ، رواه الطبراني وأبو نعيم ، وعن عبد الله بن الحارث بن جزء الزُبيدي ، قال : قال رسول الله ﷺ : العلم في قريش والأمانة في الأزد ، رواه الطبراني في الأوسط والكبير وإسناده حسن .
- وقال ﷺ : الأمانة في الأزد والحياء في قريش ، أخرجة الطبراني عن أبي معاوية الأزدي ، قال أبو نعيم ... نظر رسول الله ﷺ إلى عصابة قد أقبلت ، فقال : أتتكم الأزد أحسن الناس وجوهاً ، وأعذبها أفواهاً ، وأصدقها لقاءً : اللهم أجبر كسرهم وآو طريدهم ، ولا ترد منهم سائلاً ، قلت : رواه الديلمي من طريقه والطبراني في الكبير والأوسط . وعن أنس قال : قال : قال رسول الله ﷺ : الأزد أسد الله في أرضه يريد الناس أن يضعوهم ، ويأبى الله إلا أن يرفعهم ، وليأتين على الناس زمان يقول الرجل : ياليت أبي كان أزدياً ، وياليت أمي كانت أزدية . أخرجه الترمذي ، وقال : حديث غريب حسن ، وقد روي موقوفاً على أنس وهو عندنا أصح ، وعن أبي هريرة مرفوعاً أنه قال : نعم القوم الأزد نقية قلوبهم طيبة أفواههم . رواه أحمد في مسنده عن حسن بن موسى عن أبي لهيعة » . « كتابه السابق» مج١ / ح١ / ٧٢,٧١ .

٦ - علي بن صالح السلوك الزهراني : « المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران » ٤ .

كعب من أزد شنوءة ، ويجتمع زهران وغامد في كعب . وكانت تعرف في كتب الأقدمين بسراة دوس ، وسراة بني فهم ، وبني عدوان بالنسبة للسراة »[١] ، و : « سراة بجيلة ، وهذه متصلة بسراة الأزد ، وهي ما يعرف الآن باسم سراة بني مالك ، وهم فخذ من بجيلة »[٢] ، ولقد أفاض القاضي محمد بن أحمد الحجري (١٣٠٧ - ١٣٩٧هـ) في ذكر بلدان السراة ، وأحوازها بما يعكس حقيقة بقاء معظمها في منازلها واحتفاظها بأسمائها حتى اليوم [٣] ، أقول إنّ جماع ما تقدم ذكره تجاه مواقع بلاد أهل السّراة وحدودها ، يتمثل في : سراة جنب ، وسراة عنز ، وهي : بلاد عسير ، وسراة الحجر بن الهنو بن الأزد ، وسراة باه ، وبللقرن ، وبني الخالد من الأزد ، وسراة الحال لبني شكر من الأزد ، وسراة زهران ، وغامد ، وسراة بجيلة[٤] ، وأنّ من غور تلك السروات قبائل أزدية متفرقة قد أتى على ذكرهم لسان اليمن أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني في كتابه : « صفة جزيرة العرب » ، يقول حمد الجاسر : « وهذه السروات التي تقدم ذكرها تغيرت أسماؤها الآن ، وتداخل سكانها واختلطوا ، وأصبح المشهور المعروف منها : سراة ثقيف ، وسراة بني مالك من بجيلة ، وسراة غامد ، وزهران ، وسراة الحجر ، وسراة عسير [٥] ، وأضاف إلى ذلك قوله : « وهذه السروات الخمس تمتد فيما بين الدرجة الطولية ٣٠ / ٢١ ° شمالاً و ٠٠ / ١٨° جنوباً ، أما موقعها بالنسبة لدرجات العرض ، فإنها تكون متعرجة بحيث يقع أولها فيما بين درجتي ٠٠ / ٤٠° ، ٣٠ / ٤٠ ° ، ووسطها فيما بين ٠٠ / ٤١° و ٣٥ / ٤١° ، وطرفها الجنوبي فيما بين ٠٠ / ٤٢° إلى ٤٠ / ٤٣° »[٦] .

وحيث أصبح اسم عسير في العصر الحديث علماً على جزء كبير من بلدان السراة التي عرفناها من قبل في حديثنا السابق ، فإن ذلك يدعونا في هذا المقام إلى النظر في حقيقة هذا المسمى : المكاني الذي أضحى : « علماً جغرافياً على المنطقة التي تمتد من ظهران الجنوب حتى بلاد خثعم في الشمال »[٧] ، حيث خضع هذا المدلول المكاني لواقع سياسي جديد هو الولاء للدولة السعودية الأولى ، وقبول مبادىء الدعوة الإصلاحية : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب [٨] التي ظهرت في الجزيرة العربية منذ نحو سنة

١ - المصدر نفسه ٧
٢ - حمد الجاسر ، كتابه السابق ٣٥٦ .
٣ - مجموعه السابق ، انظر منه على سبيل المثال - مج١ / ح١ / ٦٩ ، مج١ /ح٢ / ٣٤٠ ، مج١ /ح٢ / ٣٩٧ ، مج١ / ج١ / ١٣٣ ، مج١ /ح١ / ٢٣١ ، مج١ /ح١ / ٥٤ ، مج /ح٢ / ٣٩٧ .
٤ - حمد الجاسر ، كتابه السابق ٣٥٦ ، ٣٥٧ .
٥ - المرجع نفسه ٣٥٧ . ٦ - المرجع نفسه ٣٥٧ .
٧ - هاشم النعمي ، « عسير : قبيلة وبلاداً » ، العرب ح٣،٤ ،س٢٧ (رمضان ، شوال ١٤١٢هـ) ١٩٨ .
٨ - انظر كتاب : « أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الفكر والأدب بجنوبي الجزيرة العربية » للباحث .

١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م ، وعندئذ : «قامت على مبادئها [إمارة] [١] محلية في عسير ، كانت ترجع في نظمها ، وسياستها إلى مركز الدعوة الرئيس ، وسلطتها العليا في الدرعية»[٢] ، ومن هنا اتخذ هذا الإقليم صبغة سياسية ميزته عن مدلوله المحلي السابق المعروف .

ومهما يكن الأمر فإنه يمكن التعرض لذكر عسير في بعض كتابات : الباحثين ، والمؤرخين المحليين الذين تحدثوا عن : موقع عسير الإقليمية وحدودها . وذلك لكثرتهم ، ووفرة مؤلفاتهم ، وتفاوت آرائهم ليمكن من بعد الخروج برأي علمي مناسب يحدد موقع عسير ، ويشير إلى حدودها ، فمن أولئك المؤرخين - على سبيل المثال لا الحصر - الحسن ابن أحمد عاكش [٣] ، الذي جعل حدود إمارة عسير عام ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م : « من منتهى غامد وزهران إلى غاية بيشة إلى أطراف صبيا إلى حلي ابن يعقوب »[٤] ، وقال شرف بن عبد المحسن البركاتي في معرض حديثه عن عسير : « يحدها من جهة الجبل جنوباً صعدة ، ومن جهة الشمال بالجبل زهران ، ومن جهة تهامة ... جنوباً وادي (أبو عريش) ، وشمالاً وادي دوقة ... ومن الشرق قبائل قحطان ، ومن جهة الشمال شرقاً وادي بيشة ، ومن جهة الغرب البحر الأحمر » [٥] ، وقال محمد عمر رفيع : بأن بلاد عسير : « تعرف بالسراة كما كانت جبال السراة تُعرف بأسماء أشهر القبائل من ساكنيها ، وتحدد بمنازلهم منها » [٦] ، وقال ابن عبد القادر الأحسائي بأن بلاد عسير : «تمتد من زهران إلى ظهران ، وقيل إنها من التية[٧] شمالاً إلى تمنية جنوباً»[٨] ، على حين قال فؤاد حمزة عن عسير : « إن بلاد القبيلة المعروفة باسم قبيلة عسير تتألف من : الجبال ، والأودية ، والسهول الواقعة بين أعلى [سراة] الأزد في الغرب ، وبلاد شهران في الشرق ، وبلاد قحطان في الجنوب [وبللحمر ، وبللسمر] في الشمال »[٩] ، وأضاف هذا المؤرخ إلى ذلك قوله : إن لفظ عسير كاسم جغرافي ، إنما هو : اصطلاح حديث ، وأنه يعود استعماله إلى حوالي مائة وخمسين عاماً »[١٠] ، وقال : « إن حدود عسير تمتد من :

---

١ - زيادة من الباحث .
٢ - هاشم النعمي ، « عسير : قبيلة وبلاداً » العرب ج٣، ٤ ،س٢٧ (رمضان ، شوال ١٤١٢هـ) ١٩٨ .
٣ - انظر ترجمته : في كتابي : « الحياة الفكرية » للباحث، ٢١٥ ، و « الأعلام » للزركلي ٢ / ١٨٣ .
٤ - « الدر الثمين » ٦٢ .
٥ - « الرحلة اليمانية » ٨٢ .
٦ - « في ربوع عسير » ١٧٥ .
٧- كذا في المرجع ، والصواب : « تيّه » .
٨ - « تحفة المستفيد » ، انظر النص في كتاب :« عسير » لعلي عسيري ٣٨ .
٩ - « في بلاد عسير » ٨٨ .
١٠ - المرجع نفسه ٨٥ .

الشعف [1] إلى السَّعف [2] ، ومن زهران إلى ظهران[3] ، وقال هاشم النعمي عن عسير : « يطلق اسم عسير على مجموعة جبال شامخة الذرى مترامية الأطراف ، تتخللها : أودية ، وشعاب وعرة المسالك ملتوية المآتي خصبة التربة مملؤة السكان ، يحدها شمالاً : بلاد بللحمر ، ومحائل ، وجنوباً بلاد قحطان ، ودرب بني شعبة ، وشرقاً : بلاد شهران ، وغرباً : ساحل البحر الأحمر »[4] ، ثم ذكر النعمي ما يتبع عسير إدارياً من البلدان المجاورة .

وقد بالغ عبد الله بن علي بن مسفر حين تحدث عن عسير ، فقال : « تبتدىء بلاد عسير شمالاً من الليث فبلاد زهران ، وشمران إلى حدود وادي رنية ، وجنوباً من ميناء الحديدة ، والمُخا فبلاد رازح ووادعة إلى سحار الشام ، فبلاد همدان ، وصعدة ، وحاشد ، وبكيل ، وتنتهي في الجنوب الشرقي بوادي الفرع ، ووادي صلة ، وشرقاً وادي الدواسر إلى ماء عقيلان ، فحدود بيشة ، وغرباً البحر الأحمر » [5] .

وقال العقيلي : بأن بلاد عسير : « قسمٌ من البلاد العربية التي تشتمل عليها جزيرتها .. لم تتساقط عليه أضواء التأريخ بأنوارها إلا بعد النهضة السعودية الأولى »[6] ، وقد تعرض لعسير عدد من المؤرخين، منهم : شعيب الدوسري في كتابه : « إمتاع السامر » [7] ، وأحمد بن حسن النعمي في كتابه : « عسير في مذكرات سليمان الكمالي »[8] ، والوصال البشري في كتابه : « تاريخ عسير في رسالة إبراهيم بن علي زين العابدين الحفظي » وغيرهم .

---

١ - أراد مشارف الجبال ، وأعالي البلاد من جهة الغرب . .
٢ - أراد بيشة النخل .
٣ - المصدر نفسه ٨٦ ، ٨٧ ، وظهران : ظهران الجنوب .
٤ - « تاريخ عسير » ٤ .
٥ - « أخبار عسير » ١١ ، و : « السراج المنير » ١١ .
٦ - « تاريخ المخلاف السليماني » ١ / ٥٢٧ .
٧ - ٢ / ٩
٨ - ١٣ ، قال هذا المؤلف : « يطلق اسم عسير في المصطلح الحديث على :
(١) قسم تهامة : الذي تسكنه قبائل كنانة، وخزاعة ، وألمع بن عمرو (ألمع اليمن) ، وألمع بن عدي (ألمع الشام) ، وبنو حبيب ، وبنو أنمار ، وبنو الصيق ، وبنو وائلة ، وبنو زيد ، وقبائل القهر (بنو الحارث بن كعب) ، وبنو ربيعة ، وبنو شعبة ، وبنو مالك (فيفا) ، وبنو بارق ، والحجر ، وغامد ، وزهران ، وشمران ، وخثعم ، وبنو القرن ، ويطلق على هؤلاء جميعاً تهامة لاستقرار معظمهم في سفوح جبالهم ، وأغوارها وسواحلها .
(٢) قسم جبلي : ويعرف بالسراة (السرو كما يسميه مؤرخو الحجاز واليمن) ، وتسكنه قبائل بني أسلم (علكم ومغيد) وأحلافها من بني سالم بن عوف (أولاد السالمي) وبني ميدعان ، وبني مازن ، وبنو مالك . وبنو ربيعة ، وبنو رفيدة بن عمرو ، ومن سكن السراة من بني الحجر ، وغامد ، وزهران ، وبنو الوازع ، وبنو ناجح وغيرهم ممن لهم فروع في تهامة ، ويطلق على هؤلاء داعية عسير لاستقرارهم في ظهر السروات وسفوحها الشرقية الشمالية، انتهى .

وإزاء ما تقدم يمكن القول بأن عسير في نظر أولئك المؤرخين المحليين قد شملت البلدان التي خضعت في فترات مختلفة لتقسيم سياسي ، وأن آراء أولئك الباحثين قد نحت في معظمها إلى آراء تاريخية محضة ، إذ يبدو أن بلاد عسير : « قامت في البداية عن طريق وحدة سياسية ، ثم احتفظت بتسمية شاملة لكل المناطق التي تم توحيدها في فترة من فترات التاريخ »[١] ، ولذلك يمكن القول بأن بلاد عسير اليوم تشمل الأراضي الجبلية الممتدة من جنوبي بلاد نجران ويام حتى بلاد غامد في الشمال ، وتفصلها عن بلاد اليمن الحدود المقررة بموجب معاهدة الطائف المبرمة بين المملكة العربية السعودية واليمن في عام ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م ، وتقدر مساحتها بأكثر من ثلاثمائة ألف كيل مربع[٢]، وهذا ما أمكن بيانه في سياق تطور هذا المدلول المكاني السياسي الذي يمثل في زماننا السروات الآتية ، وفق ترتيبها من الجنوب إلى الشمال : « سراة وادعة ، وهي أول السروات في جنوبي المملكة العربية السعودية ... ثم يليها سراة عمرو ولد سنحان ، ثم يليها سراة جنب بن سعد العشيرة ، فسراة عبيدة ، فسراة رفيدة قحطان ، فسراة شهران (تمنية) ، فسراة شنوءة من منطقة القرعاء إلى حدود قبائل عسير مع رجال الحجر ، ثم سراة الحجر ، وأولها سراة بللحمر ، ثم سراة بللسمر ، ثم سراة تنومة بني شهر ، ثم سراة [النماص] [٣] بني شهر ، ثم سراة بني عمرو ، ثم يليهم سراة بللقرن ثم سراة شمران بن جنب ، ثم سراة خثعم »[٤] ، ويلي منطقة عسير الإدارية اليوم : « سراة غامد ، ثم سراة زهران ، ثم سراة بجيلة ، ثم سراة بالحارث بن كعب ، حيث منطقة ميسان ، ثم سراة بني سعد ، وفهم فالطائف »[٥] .

١ - علي بن أحمد عيسى عسيري ، كتابه السابق ٤٠ .
٢ - عبد الله أبو داهش ، « الحياة الفكرية والأدبية في جنوبي البلاد السعودية » ١٧ ، انظر « ابن سعود » لمصطفى الحفناوي ١٩٨ ، و : « اليمن وحضارة العرب » لعدنان ترسيسي ٢٢٠ ، و : « مناخ إقليم جنوب غرب المملكة العربية السعودية » مجلة الدارة ع١ ، س٢ ، (ربيع الأول ١٣٩٦هـ) ١٣١ .
٣ - زيادة من الباحث .
٤ - عمر غرامة العمروي ، « كتابه السابق » ١ / ٥١ / ٥٢ .
٥ - المرجع نفسه ١ / ٥٢

المبحث
الثاني

يقول أحد الباحثين : « ولما كانت المدينتان : مكة والطائف تقعان بين المدينة وعسير [السّراة] ، فقد حالتا دون وصول الإسلام [عند ظهوره] إلى هذه البقعة ، وهذا ما يعلل سبب تأخر الإشراقة السماوية إلى هذه المنطقة من أرض العرب »[١] ، ولكن الأمر لم يلبث طويلاً ، إذ نلحظ وفود الأزد وغيرهم تغشى المدينة المنورة أواخر العقد الأول من الهجرة النبوية ، تبايع رسول الله ﷺ ، وتدخل في دين الله أفواجاً ، حيث اتصلت ولاية عدد من صحابة رسول الله ﷺ على عدد من مخاليف هذه الأنحاء بجنوبي الجزيرة العربية ، إذ عرف الصدر الأول من تاريخ المسلمين في هذه الأنحاء عدداً من أولئك الولاة الأمراء ، ولما ظهرت دولة بني العباس استعمل السّفاح (١٠٤-١٢٦هـ) على : اليمن ، والحجاز[٢] عمَّه داود بن علي بن عبد الله بن العباس ، وفيما يبدو أن مقامه كان في الحجاز بحجة أنه أرسل مندوباً عنه إلى اليمن[٣] ، ومثل هذا اتسق في عهد : هارون الرشيد (١٤٩ - ١٩٣هـ) الذي : « استعمل على اليمن خاله الغطريف ... ثم [عزله] بمحمد بن إبراهيم الهاشمي ، وجمع له الحجاز واليمن »[٤] ، ومثله المأمون[٥] في إقرار ولاته على هذه الأنحاء .

وإذا كان أهل السراة قد أسهموا في الفتوحات الإسلامية الأولى ، فإنما هو أمر قد عرف عنهم ، وسُجل لهم ، مما خلد لهم المواقف الرائعة ، والذكر الحسن المعروف ، إذ كان منهم : القادة ، والجند ، والشعراء الذين احتفظ لهم التاريخ بأسمائهم ، وسجَّل أخبارهم ، فلهم بسالة مشهودة ، وجهاد صادق معهود ، وحيث إنهم جزء من قبائل جنوبي الجزيرة العربية فإنه : « لما توقفت الفتوحات ، وانتقلت الخلافة إلى العباسيين عاد سكان عسير [السراة] إلى ربوعهم ، وعاشوا حياة آمنة ، خاضعين لحكم الدولة الإسلامية ، مخلصِين في الولاء لخلفائها .

وعندما ضعفت الدولة العباسية في آواخر عهدها بدأت الدويلات ، وفي مقدمتها الدولة الطولونية تتقاسم رقعة الدولة الإسلامية في الشرق والغرب ، ووقعت عسير [السراة] تحت حكم الدولة الطولونية من عام ٢٧٤ إلى ٢٩٣هـ (٨٨٧-٩٠٥م) ، ثم

١ - محمود شاكر ، شبه جزيرة العرب (١) عسير ١١٣ .
٢ - الخزرجي ، « تحفة الزمن في أخبار ملوك اليمن » مخطوط ص٥-٥ .
٣ - المصدر نفسه ص ٥ - ١٥ ، وانظر : « قرة العيون ، لابن الديبع ١ / ١١٦،١١٨،١١٩ .
٤ - ابن الديبع : « قرة العيون » ١ / ١٢٧ ، ١٢٩
٥ - المصدر نفسه ص ٥ - ١٥ .

حكمها العباسيون من جديد من عام ٢٩٣ هـ إلى ٣٣٠ هـ (٩٠٥ - ٩٤١م) ، ثم تولى أمرها الإخشيديون حتى ٣٦٣هـ / ٩٧٣م ، فالفاطميون إلى سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م ... وقد خضعت عسير [السراة] للأيوبيين من سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م إلى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م ، ثم سادتها الفوضى ووليها عدد من الأمراء والمشايخ إلى أن حكمها المماليك عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م »[١] وليس ببعيد الظن بأن أمراء هذه القبائل ومشايخها قد أسهموا بشكل فعال في توجيه الحياة السياسية المحلية عبر تلك الفترة السابقة كلها ، على الرغم من : « أن هذه المنطقة عاشت عتمة حالكة في أواخر القرن الرابع الهجري حتى أوائل القرن الثالث عشر الهجري »[٢] ، إذ يبدو أن الأهلين في هذه السروات عاشوا في مرتفعاتهم عبر هذه الفترة : « حياة هادئة مطمئنة يخضعون للدولة ويدينون بالولاء للوالي الذي يتبعون إليه في مكة المكرمة »[٣] .

وحينما يطمئن الباحث إلى حقيقة الواقع السياسي في جبال السراة وأن أهلها يرتبطون في حياتهم السياسية عبر هذه الفترة بالحجاز ، وبخاصة مشيخاتهم القبلية وزعامتهم المحلية ، فإنه ربما يستطيع إلقاء الضوء على هذا الحال السياسي من خلال ما تيسر له جمعه من مادة علمية ، قد تدل على هذا الاتصال السياسي بشرافة الحجاز في مكة المكرمة ، وأنها كانت على دراية تامة بأحوال الناس هنا في بلاد السروات ، إذ يرد ذكرها في مؤلفات الحجازيين كثيراً ، مما يدل بالفعل على اتصال سياسي عام ، إلى جانب الولايات المحلية القبلية التي سنأتي عليها .

وعند رصد هذه الأحداث السياسية التي يمكن أن تبني طرفاً من الحياة السياسية في بلاد السراة نلحظ أنه في سنة ٧١٤هـ يلوذ حميضة ورميثة ابنا أبي نُمي ببلاد السراة فراراً من أخيهما أبي الغيث بن أبي نُمي[٤] ، حيث : « لحقا ببلاد السراة »[٥] ، ومثل ذلك وقع في أحداث سنة ٧٦٢هـ[٦] ، وفي سنة ٨٠٨هـ قدم حسن بن عجلان (٧٧٥-٨٢٩هـ) : « إلى الشرق ثم إلى لية وحارب بعض أهلها ، واستولى على بعض حصون مَنْ حاربه »[٧] ، وفي الثامن والعشرين من جمادي الثانية سنة سبع وثلاثين وثمانمائة قاد الشريف رميثة بن

---

١ - وهبي الحريري ، « عسير تراث وحضارة » ٢١,١٩ .
٢ - هاشم النعمي ، « عسير : قبيلة وبلاداً » العرب ، ج٣,٤ ،س٢٧ (رمضان وشوال ١٤١٢هـ) ١٩٨ .
٣ - محمود شاكر ، « عسير » ١٢٠ .
٤ - عارف عبد الغني ، « تاريخ أمراء مكة » ٥٤١ .
٥ - محمد بن محمد بن فهد ، « إتحاف الورى بأخبار أم القرى » تحقيق فهيم شلتوت ٣ / ٢٧٥ .
٦ - المصدر نفسه ٣ / ٢٩٢ .
٧ - عز الدين بن فهد : « غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام » تحقيق فهيم شلتوت ٢ / ٢٧٥ .

عجلان جيشاً إلى : « بلاد الشرق ، فغاروا على شهران ، وعرب كثيرة ، فانكسر[1] جماعته ، وقُتل هو وجماعة من القواد والعبيد في يوم الأربعاء سادس رحب سنة سبع وثلاثين وثمانمائة ببلاد الشرق ودُفن فيه »[2] .

وتبين هذه الومضات السياسية المحدودة مدى صلة أشراف مكة ببلاد السراة ، وأنهم يعدون أهلها من رعاياهم ، يقول عز الدين بن فهد أنه في سنة ٨٤٦هـ توجه بركات بن حسن بن عجلان : « إلى السيد بركات نحو جدة ثم إلى الفالق من ناحية اليمن ، وأقام به، وفي صفر توجه من اليمن على طريق الحسا إلى الشرق ، ونزل بالقرب من وادي ليه ، وأمر له السيد أبو القاسم بقطعة الحجاز ، وهي ألف وتسعمائة أفلوري ، وضيَّفه أهل الواديين بثمانمائة أفلوري . . . »[3] ، قلت : لعله أراد بالحجاز هنا : طرفاً من بلاد السراة ، وفي يوم الجمعة سادس عشر من شهر صفر عام ٨٧٥هـ : « سافر الشريف [جمال الدين محمد بن بركات] وعياله وعسكره إلى الشرق ، وسُمع أن نيته يصالح عرب بني سعد ، وغاب ببلاد الشرق نحو ثلاثة أشهر وعاد بالسلامة »[4] ، وفي الخامس عشر من جمادي الآخرة سنة ٨٨٥هـ : « جاء قاصد من عند الشريف[5] وأخبر أنه غزا عرب بيشة ، وقتل منهم جماعة ، وغنم دروعاً وإبلاً وغير ذلك »[6] ، « وفي أول ذي القعدة (٩٠٧هـ) سافر السيد بركات وعسكره إلى جدة لأجل التوجه لزبيد ، وخلّف أخاه السيد قايتباي بمكة ، ثم لحقه وجاء عسكر من عرب اليمن : دوس ، وأوس وغيرهما إلى مكة »[7] .

وتفيد هذه الملامح السياسية أن عرب السراة في جملتهم لم يكونوا منضبطين لهذه الولاية السياسية في الحجاز بحجة أن العسكر الذين مرّ ذكر وفادتهم إلى مكة في سنة ٩٠٧هـ لم يكونوا خاضعين لأمر السلطة يومئذ ، يقول عز الدين بن فهد : إن الشريف عنقاء عند ئذ أرسل لهم : « فوجد بعضهم يضارب مع عبد للمحتسب ، فشكره له ، فضربه وأرضاهم ، فلم يُقنعهم ذلك ، وتوجه جماعة لربع التوريزي ، فخرج لهم جماعة من الترك ، فتناوشوا وإياهم ، ورموهم بالنشاب ، فقتلوا جماعة وخرّجوا جماعة ، فهرب العرب، ونهبوا بيوتاً وغيرها ، وطلعوا على جبل أبي قبيس ، ورموا بالمقاليع ، فجاء

---

١ – في الأصل : « فانكسروا » .
٢ – عز الدين بن فهد ، « كتابه السابق » ٢ / ٤٨٣ ، وانظر : « تاريخ أمراء مكة » للعارف ٦٣٣ .
٣ – المصدر نفسه ٢ / ٤٢٦ .
٤ – محمد بن محمد بن فهد « كتابه السابق » ٤ / ٥٢٣ .
٥ – جمال الدين محمد بن بركات .
٦ – المصدر نفسه ٤ / ٦٥٥ .
٧ – عز الدين بن فهد « كتابه السابق » ٣ / ١٢٠ .

الشريف عنقاء وابن قُنيد فرد الترك والعرب بعد أن أرضاهم الشريف عنقاء بأن قال لهم : « الشريف يعطيكم دية المقتولين ، وتوجه بهم إلى الوادي ، فسمعوا أن الشريف توجه إلى عُسفان ، وأن نيته التخلف عن الحج ، فعادوا إلى مكة »[١] .

ولقد تعود أشراف مكة المرور على بلدان السراة عن طريق غزاتهم لبعض أطراف إماراتهم . ومن ذلك أن الشريف حسن أبي نمي سنة ٩٨٢هـ لما عاد من غزاته للوسيع بمنطقة الليث : مر « على بجيلة وأمرهم بالتزام الشريعة المحمدية ، فخالفوا أوامر الله ، وأوامره العلية ، فقاتلهم إلى أن طلبوا العفو وبذلوا الأموال فأجابهم إلى ذلك ، وأخذ منهم عدة من دروع الحديد العراض الطوال يقارب إنها قريب من خمسة ألاف نال منها السادة الأشراف ، وجميع من حضر من سائر الأطراف ، وصار خراجها يحمل إلى حضرته الشريفة كل عام مرّ الدوام »[٢] ، وقد أرخ العلامة جمال الدين العاصمي هذه الغزاة بقوله :

صادّ الصناديد أعطى الملك واجبه   حامي حمى بلد الله الأمين حسن[٣]

ولم تقتصر ولاية أشراف مكة على أطراف بلاد السراة الشمالية ، بل نرى سيطرتهم السياسية تغشى ما وراء ذلك ، ففي العقد التاسع من القرن العاشر الهجري ، قال العصامي : كانت : « غزوة سوق الخميس ، ويسمى زهران ، يتصل به : قرن ظبي ، والصفا ، والخواة ، وجبل عظيم يسمى ملس ، كان من شأن هذه المواضع أن سكانها لا يورثون النساء جملة كافة خصوصاً البنت التي منعُها من أعظم سنن الجاهلية ، ومانعوها هم الكفار شرعاً ، ومن عادتهم أن يمنعوا كل من وصل إليهم خصوصاً العصاة لولاة الأمور، والذين يأكلون أموال الناس بالباطل والفجور ، ثم تكرر منهم ما ذُكر من القبائح ، ونصحهم مولانا الشريف المشار إليه وهددهم ، فلم ينقادوا للناصح والنصائح ، فبرز أمره المطاع إلى أكبر أولاده الكرام السيد الحسين الأسد الضرغام بدر التمام أن يقصدهم في محالهم ، فقاتلهم وقتل أعظم رجالهم، وحاز نفائس أموالهم ، وفاز بأسر نسائهم وأطفالهم، فلما ملك البلاد والعباد ، ووصل البشير بنصرته إلى والده وجده خير والد من خير أجداد، برزت أوامره المطاعة ، أن ينصب حاكماً شرعياً وأميراً ليقيم نظام السنة والجماعة ، فتمّ ذلك على الأوضاع الشرعية ، ونقل خراجها إلى الخزائن الشريفة العلية»[٤] .

---

١ - « كتابه السابق ٣ / ١٢٠ .

٢ - عبد الملك بن حسين العصامي ، « سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي » ٤ / ٣٦٧ .

٣ - المصدر نفسه ٤ / ٣٦٧ .

٤ - المصدر نفسه ٤ / ٣٦٧ .

وقد نفيد من هذه الأحداث : ضعف الولاية السياسية ، وعدم تمكنها من ضبط أمور السلطة ، وتنفيذ أحكام الله سبحانه وتعالى ، ناهيك عن ضعف مستوى الحياة الدينية بهذه الأنحاء ، إذ قيل : إن أهل تلك الجهات من السَّرْويين -بعد ذلك- قتلوا القاضي والحاكم اللذين نصبا هنالك ، مما أفضى إلى غضب شريف مكة نفسه ونهوضه في جيش جرّار لتأديبهم ، يقول العصامي في هذا الشأن : « فلما وصل خبر ذلك لأهل سوق الخميس سوَّل لهم عدو الله أخوهم إبليس فقتلوا الحاكم الشرعي والأمير المذكورين شقاقا منهم في الدارين » [١] ، حيث : « عزم غزو سوق الخميس لفعلهم المذكور الخسيس ، فقصدهم بنفسه الزكية افتتاح سنة سبع وثمانين وتسعمائة ، فاجتمع بسوحه من بادية مكة المشرفة طوائف : هذيل ، وغطفان ، وعدوان ، وبني سعد ، وما اتصل بهم من المؤلفة ، فاجتمعوا بناديه الفسيح رحابه ، المنيع جاره وأحزابه ، فنظر إليهم أمير دار المضيف ، فاستكثر ما يجب لهم من المصاريف ، فقال على لسانهم لمولانا الشريف : لعل سيدي يعجل بالمسير ، فإن الجيش كبير ، فقال له الشريف : أجبهم عني بأني أطعم صغيرهم حتى يشب ، وشابهم حتى يشيب ، ثم صار بهم بعد مدة ، فلما وصل واديهم ، ونزل مخيمه المعظم في ناديهم ، قال لهم بعض عقلاء الرجال : اطلبوا من مولانا الصلح ، فأجابوا جواب أهل الغرور والهوس ، على سبيل التهكم : اسألوا عن الصلح جبل ملس ، فقبل تمام القال ، صعدت الرجال على الجبال ، وعم القتل معظم الرجال ، وأسر النساء ، والأطفال ، ثم قبض على مائة وسبعين من أشرافهم ، وكبّلهم في الحديد في أعناقهم وأطرافهم ، فأحضروا له من : الدروع والأموال جُملاً كثيرة لا يحويها المقال ، فأخذ ذلك من جملة الغنائم ، وأقام شريعة جده سيد العوالم ، ثم عاد إلى مكة المشرفة ، فدخلها في شهر رمضان في موكب عظيم قد أضا ، لم يسمع بمثله فيما مضى ، وبين يديه الجماعات المقبوضون ، كل عشرة في كبل حديد ، وشيخهم مع ولديه في الحديد ، راكب في حال غير جميل ، ثم أمر بذبح أربعة عن الحاكم كما ذبحوه ، وذلك بسوء ما فعلوه »[٢] .

ويأتي اتصال بعض بلدان السراة بشرافة الحجاز واضحاً ، إذ تكرر -على سبيل المثال- ورود ذكر بلدة بيشة في المصادر التاريخية الحجازية ، فلقد أورد العصامي خبر وفاة الشريف أبي طالب بن حسن أبي نمي بهذه البلدة سنة (١٠١٢هـ) ، وقال كانت وفاته : «بمحل قرب بيشة »[٣] ، مما يدل على تحرك الأشراف في هذه الأنحاء واتصالهم بها ،

١ - «العصامي ، « كتابه السابق » ٤ / ٣٦٨ . .
٢ - المصدر نفسه ٤ / ٣٦٨ ، ٣٦٩ .
٣ - المصدر نفسه ٤ / ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

وقيل أيضاً أنه في عام ١٠١٦هـ ولد الشريف زيد بن محسن : « ببلدة بيشة من أعمال السَّراة »[1] ، وفي سنة (١٠٣٢هـ) : « توفي السيد دخيل الله بن ثُقبة بن أبي نُمي في بيشة ، ودُفن بها »[2] ، وقيل في أحداث سنة ١٠٣٨هـ : « فتوجه مولانا الشريف محسن ، ومعه ابنه الشريف زيد ، وبعض السادة الأشراف إلى الحسينية ، ثم إلى جهة الشرق نحو بيشة ، فجمع جيشاً كثيراً من العربان ، وقصد الإغارة على الترك المقيمين بالطائف ، فلم يتفق له ذلك ، ثم سافر إلى مدينة صنعاء اليمن فأقام بها إلى أن توفى عام ثمانية[3] وثلاثين وألف »[4] ، وقيل إنه في عام (١٠٧٨هـ) : وصل : « السيد سعيد بن شنبر بن الحسن من بيشة متوجهاً إلى السيد حمود وجماعته بالينبع »[5] ، وفي أحداث سنة (١٠٨٠هـ) نفى شريف مكة : « رجلين إلى بلدة بيشة أحدهما من أولاد مكة ، والآخر من أشراف الأزبك المجاورين »[6] ، وفي أحداث عام (١٠٨٢هـ) ارتحل الشريف سعد بن زيد بن محسن : «إلى الطائف ، ثم إلى تربة ، ثم إلى بيشة »[7] رغبة في دفع القتال الذي وجه نحوه ، ومثله في أحداث سنة ١٠٨٣هـ خرج : «الشريف بركات وصحبته محمد جاوش بالعساكر في طلب الشريف سعد فسلك طريق الثنية إلى الطائف وكان الشريف سعد قد سلكها ونزل بالطائف ثم ارتفع عنه إلى عبّاسة ثم إلى تربة ثم إلى بيشة فأقام بها فتبعه الشريف بركات ...»[8] ، ولم تكن بيشة وحدها مدار صراع الأشراف بمكة ، ولا موطن وفادتهم بل كانت : بلاد غامد مثيلة لها ، يقول عارف عبد الغني في أحداث سنة ١١١٦هـ إنه : «حدثت معارك عنيفة كان من نتائجها هزيمة الشريف سعد وفراره إلى بلاد غامد »[9] حيث غدت بعض بلدان السراة مسرحاً للأحداث السياسية التي تجري بمكة المكرمة ، مما يدل على صلة أولئك الأشراف بالحجاز بهذه الأنحاء المجهولة من بلاد العرب ، ولربما كان في جبال السراة : بيوتات من الأشراف ، وبخاصة في : بيشة ، وتربة ، وبعض قبائل السراة الشمالية ، مما دعا إلى هذا التواصل والوفادة .

ولقد شهدت المشيخات المحلية والإمارات القائمة في بلدان السراة عبر هذه القرون

---

١ – العصامي ، « كتابه السابق » ٤ / ٤٧٢ .
٢ – المصدر نفسه ٤ / ٤٠٢ .
٣ – في الأصل : ثمان ، ويبدو أن للشريف محسن والياً على بيشة اسمه مقامس ، انظر : « غاية الأماني » ليحيى بن الحسين ٢ / ٨٢٩ .
٤ – المصدر نفسه ٤ / ٤١٣ ، وانظر : « تاريخ أمراء مكة » لعارف عبد الغني ٧١٩ .
٥ – المصدر نفسه ٤ / ٤٩٢ ، ٤٩٣ .
٦ – المصدر نفسه ٤ / ٥٠٩ .
٧ – عارف عبد الغني ، كتابه السابق ٧٤٣ .
٨ – العصامي ، « كتابه السابق » ٤ / ٥٢٥ ، ٥٢٦ .
٩ – « كتابه السابق ٧٧٢ ، ومثل ذلك وقع في سنة ١١١٢هـ ، انظر : « غامد وزهران » للحسيل ٢٨٠ .

الوسيطة شيئاً من النزعات الحربية اليمنية التي وقعت في هذه الأثناء ، ولكنها تعد طارئة بحكم الجوار والتنازع السياسي ، وهو ما يجعل لهذه البلدان السروية شخصية سياسية معتبرة بحكم الموروث التاريخي السياسي الذي يجعل ولايتها في العصور الإسلامية السابقة لولاية الحجاز ، أو لمشيخاتها المحلية ، ولقد أصاب مقبل الذكير الحقيقة حين قال في معرض حديثه عن عسير [السّراة] : « إن هذه المقاطعة كانت فيما مضى من أعمال الحجاز »[1] وذلك ما تؤيده النصوص السابقة الواردة في هذا البحث ، ولقد قيل في أحد المصادر المحلية مما يؤكد تلك النزعات السياسية إن : قوات بني رسول في عهد الأشرف الثاني (٧٧٨-٨٠٣هـ) قد توغلت : في صعدة ، ونجران ، وظهران الجنوب ، واستولت عليها ، وتمركزت في الحرجة ، مما دعا أمير عسير [السراة] يومئذ لمحاربته ودفعه ، حيث : « تراجع بنو رسول إلى الحُمْرة »[2] ، ولقد شهدت : نجران عدداً من الوقعات الحربية وبخاصة في سنتي ٦٧١هـ[3] ، ٦٧٢هـ ، إذ يبدو أن أشراف تهامة كانوا على وعي حقيقي بأحداثهم التاريخية مع الأهلين في نجران ، يقول يحيى بن الحسين : في أحداث سنة ٦٧٢هـ : « وفيها وقع الصلح بين : المظفر ، والإمام ، والأشراف ، وقصدوا بعد الصلح إلى نجران ، فقتل منهم الشريف علي بن وهاس »[4] ، ويؤيد هذا القول ما ذكره الخزرجي أيضاً في أحداث هذا العام نفسه ، إذ قال : « اتفق للأشراف مخرج إلى نجران عقيب الصلح ، فقُتل فيه الأمير علم الدين علي بن وهاس قتلته يام »[5] .

ومن المعروف أن إمارة آل أبي الجود على نجران قد استمرت إلى القرن السابع[6] ، إذ عُرفت هذه الولاية منذ العهد العباسي[7] ، وهم من آل عبد المدان[8] ، يقول مقبل الذكير : في معرض حديثه عن نجران أيضاً بأنها : « لم تدخل تحت سلطة منظمة، وكل الحكومات التي تدعي السيادة عليها، إنما هي : اسمية لا فعلية لأنهم خارجون عن كل سلطة مشروعة ، فما دانوا لأحد غير شيوخهم، إلا علاقات وقتية تقتضيها المصلحة متى آنسوا القوة في إحدى الحكومات المجاورة مالوا إليها، وارتبطوا معها بما يشبه المعاهدة ، وبما أن لا فائدة ترجى منهم ، فقد تُرِكوا وشأنهم »[9] ، ويؤيده في هذا القول محمد بن أحمد العقيلي الذي يقول : « وأهل نجران مع تفردهم بأمر بلادهم تحت سلطان آل أبي الجود

---

١ - « كتابه السابق » ، بدون ترقيم للصفحات .
٢ - شعيب الدوسري ، « امتاع السامر » ٣١ .
٣ - انظر : « السمط الغالي الثمن » لمحمد بن حاتم الهمداني ٤٠٩ .
٤ - « غاية الأماني » ١ / ٤٥٨ .
٥ - « العقود اللؤلؤية » ١ / ١٨٧
٦ - محمد بن أحمد العقيلي ، « نجران » ١٠١ .
٧ - المصدر نفسه ٩٨ .
٨ - المصدر نفسه ٩٨ .
٩ - « العقد الممتاز في أخبار تهامة والحجاز » ١٠ .

نراهم لا يتأخرون عن الاشتراك في أي حرب بين جيرانهم مع منْ يوفّر لهمْ العطاء كمرتزقة» [1] .

ولكي نستوعب ما وقع في أيدينا من الأخبار السياسية عن بلدان السراة أمكن الإشارة إلى ما ذُكر في أحد المصادر : أن إمارة عسير تعودت صد الهجمات التي تتعرض لها من قبل الإمامة في اليمن ، إذ قيل إنه في سنة (٩٢٠هـ) صُدت هجمات إمام اليمن التي سُيرت في هذا العام إلى شمال بلاد وادعة [2] ، وأنه : في المحرم سنة (٩٤١هـ) «خرج الإمام شرف الدين من صعدة إلى جبل برط ، فدخله قهراً على أهله ، وسار في تلك الجهة حتى بلغ الرمل الذي يتصل بالبصرة ، وخيّم في موضع يعرف بالمصراخ ، وأقام فيه قدر عشرين يوماً ... ثم توجه إلى نجران ومعه ولده المطهر . وكانت نجران في ذلك الأوان هجرة الأشراف آل حمزة ومأواهم ، فخرجوا عنها إلى الرملة المتوسطة بين البصرة ونجران ، وطلبوا من الإمام الأمان ، فأمنهم ... وفي إقامة الإمام بنجران أمر بإقامة مشهد على قبر عبد الله بن الشامر ... وبعد أن لبث الإمام في نجران أصاب أصحابه مرض شديد ، مات منه كثير منهم ، فأمر بحمل المرضى إلى صعدة ، ورجع الإمام إليها ، ثم سافر قافلاً إلى صنعاء» [3] .

قلت : لعل هذه الومضات السياسية المحدودة السابقة تساعد على تبيان ملامح هذه الحياة المجهولة ، وتدل على أن بلاد السراة قد كانت بين قوتين سياستين ، هما : الحجاز ، واليمن ، وأن أولاهما كانت في معظم الأحيان ترى أحقيتها بالولاية على هذه البلدان ، وأن من واجبها بسط الولاء لها في ربوعها ، حيث رأينا في بعض ما قيل من قبل طرفاً من هذا الشعور ، وأنه قد قيل بعقد كثير من الغزوات الحربية ، والنهضات التأديبية ، على حين أدركنا أن القوة السياسية الثانية عبر هذه العصور الإسلامية الوسيطة ، لم تكن كذلك ، ولعل ذلك قد وقع بسبب النفرة السياسية المشهودة بينهما ، وما كانت عليه الجبال اليمنية من واقع مذهبي معروف ، مما تسبب في هذا الاستقلال ، وحقق هذه الشخصية السَّرْوية السّنية ، إلى جانب وجود الفكر الإسماعيليْ في نجران الذي كان يعد سداً منيعاً تجاه ذاك المد الزيدي الخطير .

وبين هاتين الوجهتين السياسيتين تنهض الولاية المحلية ، والمشيخات القبلية ، إذ يبدو

---

١ - « نجران » ١٠٧ .

٢ - شعيب الدوسري « كتابه السابق » ٣٩ .

٣ - يحيى بن الحسين ، « كتابه السابق » ٢ / ٦٧٧ .

إن السَّرْويين عبر هذه القرون الإسلامية الوسيطة الماضية كانوا : «يحبّون الاستقلال فلا يدينون لصاحب اليمن ، ولا لصاحب الحجاز، لاسيما الأعراب منهم»[١] ، وفي هذا الشأن يحدثنا الحسن بن أحمد الهمداني عن طرفٍ من تلك الولايات المحلية الظاهرة في القرن الرابع الهجري، فيذكر مدينة جُرش وحكامها فيقول : «جرش هي كورة نجد العليا، وهي من ديار عنز ويسكنها، ويترأس فيها العواسج من أشراف حمير »[٢] ، فدلّنا عند ئذ على أن العواسج الحمريين هم حكام جرش، ولكنه حينما سمَّى بلدة جرش كورة، فإنه من بعد ذلك سمَّى : الجهوة في سراة الحجر مدينة، وجعلها أكبر من جُرش فقال : «الجهوة مدينة السراة أكبر من جرش »[٣] ، وذكر حاكمها يومئذ بقوله : « وصاحبها الجابر بن الضّحاك الرَّبَعي من نصر بن ربيعة بن الحجر من بني أثلة رؤوس بني نصر بن ربيعة بن شهر بن الحجر »[٤]، وفي سراة الحجر أيضاً ذكر الهمداني : الأشجان، ونحيان، ولكنه سمَّى الأولى : قريةً، والثانية وادياً، إذ قال : « ثم الأشجان قرية كبيرة ليس في السراة قرية أكبر منها بعد الجهوة »[٥] ، وقال : «ثم نحيان واد مستقبل القبلة»[٦] ، وذكر أن حاكميهما عندئذ هما : «علي بن الحصين العبدي من بني عبد بن عامر، وابن عمه الحصين ابن دحيم »[٧] ، وأضاف إلى ذلك قوله :«ووراء الجهوة زنامة العرق وهي لجابر بن الضحاك» أيضاً ، وهو حاكم الجهوة المذكورة، وقال بعد ذلك : «ثم الباحة والخضراء قريتان لمالك بن شهر»[٨]، وتلك الأسماء تمثل ولايات هذا العهد في القرن الرابع الهجري ، وبخاصة : جُرش ، والجهوة ، والأشجان ، ونحيان ، ويبدو أن هذه الولايات لم تدم ، إذ قيل بخراب جرش : « أواخر القرن الرابع الهجري نتيجة للحروب التي وقعت بين عنز بن وائل، وبين أهل مدينة جُرش من العواسج »،[٩]وقيل : سنة ٦٥٣هـ: على يد قوات صقر بن حسان اليزيدي »[١٠] ، ولربما كان التاريخ الأول أقرب للصواب لتضافر الآراء نحوه ، ولأننا لم نجد ذكراً واسعاً بعد ذلك لهذه المدينة ، ولقرب ذاك العهد من قول أحد الباحثين الذي يقول : « وكانت لها شهرتها في العصر العباسي حتى القرن الخامس الهجري ،

١ - إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن ، « تذكرة أولي النهى والعرفان » ٣ / ٢١ .
٢ - « صفة جزيرة العرب » ١١٧ .
٣ - «المصدر نفسه ١٢٢ .
٤ - المصدر نفسه ١٢٢ ، ولقد ورد ذكر له في كتاب : « الإكليل » للهمداني نفسه ٦٨ ، حيث قال المحقق : « لعله جابر ابن الضحاك الربعي صاحب الجهوة » هـ٢ ص٦٨ .
٥ - المصدر نفسه ١٢١ .
٦ - المصدر نفسه ١٢٢ .
٧ - المصدر نفسه ١٢٢ .
٨ - المصدر نفسه ١٢٢ .
٩ - هاشم النعمي ، « عسير قبيلة وبلاداً » العرب ج٣ ، ٤ ، س٢٧ (رمضان / شوال ١٤١٢هـ)١٩٧ .
١٠ - أحمد بن حسن النعمي ، كتابه السابق ٢١٨ .

حيث اختفى ذكرها بعد ذلك »[1] ، ولعل المراد بذكر القرن الخامس الهجري أوله ، حيث وصف أحد الباحثين الحياة في بلاد السراة بأنها : « عتمة حالكة بعد خراب عاصمتها الأولى مدينة جُرش » [2] .

أما الجهوة فقد قيل بخرابها سنة ٨١٩هـ : « عندما طرقت المنطقة جيوش الغُز المماليك» [3] ، إذ نهضت على أنقاضها مدينة النماص ، « واتخذت مركزاً للمنطقة بعد تدمير مدينة الجهوة التي تقع إلى الشرق منها »[4] ، وهذا القول أيضاً فيه نظر لغياب ذكرها بعد القرن السادس ، وأنها ربما كانت ضمن القرى التي أُهلكت سنة ٥٩٧هـ إثر الوباء الشديد الذي قيل بوقوعه في السراة عند ئذ ، فلقد ذكر ابن كثير - رحمه الله تعالى -في أحداث سنة ٥٩٧هـ، إذ قال : « وفيها وقع وباء شديد ببلاد عنزة بين الحجاز واليمن ، وكانوا عشرين قرية ، فبادت منها ثماني عشرة لم يبق فيها ديار ولا نافخ نار ، وبقيت أنعامهم وأموالهم ولا قاني لها ، ولا يستطيع أحد أن يسكن تلك القرى ولا يدخلها ، بل كان من اقترب إلى شيء من هذه القرى هلك من ساعته نعوذ بالله من بأس الله ، وعذابه وغضبه وعقابه . أما القريتان الباقيتان ، فإنهما لم يمت منهما أحد ، ولا عندهم شعور بما جرى على من حولهم ، بل هم على حالهم لم يُفْقَدْ منهم أحد سبحان الحكيم العليم »[5] .

وهذا الظن أيضاً يدعونا إلى النظر في تحديد موقع هذه المدينة ، إذ قيل : إنها في تنومة بالقرب من قرية بني لام المعروفة اليوم في أكناف جبل منعا الشهير ، فلقد قال عبد الله ابن علي بن حميد (١٣٢٦-١٣٩٩هـ) إن : « مدينة الجهوة غير موجودة الآن ، وتوجد قرية صغيرة بها عدة بويتات تابعة لقبيلة بني بكر من بني شهر في وادي النماص تحمل هذا الاسم واقعة على تلٍّ صخري محدود ، تحف به المزارع ، وليس بها أو بقربها مايدل على وجود مدينة قديمة ، والذي علمته من أحد المعمرين من بني لام أن مدينة قرب جبل منعا مما يلي تنومة هي الجهوة التي عناها الهمداني ، وأن هذه البلدة حل بأهلها وباء ومات معظمهم ، وتفرق الباقون ، وحل بها الخراب ، ولم يبق إلا موقعها»[6] ، على حين يعرفها أحد الباحثين بقوله : « الجهوة قرية قديمة تقع إلى الشرق من مدينة النماص على بضعة

---

١ - محمد أحمد معبر ، « مدينة جُرش » ١٤ .
٢ - هاشم النعمي ، « عسير قبيلة وبلاداً » العرب ج٣ ، ٤ ، س٢٧ (رمضان / شوال ١٤١٢هـ) ١٩٨ .
٣ - أحمد بن حسن النعمي ، « كتابه السابق » ٢١٦ .
٤ - المصدر نفسه ٢١٦ .
٥ - « البداية والنهاية » ١٣ / ٢٦ .
٦ - « قبائل الحجر أفخاذها وبلادها » العرب ج١ ، ٢ ، س٩ (رجب وشعبان ١٣٩٤هـ) ٦١ .

أكيال ، وآثارها موجود منها أخدود بطول ٣٠٠ متر ، بحث عنه رجل معروف عند أهل تلك الجهة »[١] وإزاء هذين الرأيين يظل الظن قائماً تجاههما حتى ينهض أحد أبناء هذه المنطقة بدراسة آثارية فيهما تكشف عن هذا المجهول ، وتدفع الاختلاف ، على الرغم من الميل للرأي الأول ، حيث إن تنومة التي يظن بأنها فيها : مدينة تاريخية مشهورة ، وذات فسحة في أرضها ، وبها تمر طرق : الرحلة ، والتجارة ، والحج ، وهي محاطة بجبال منيعة ، ولها منافذ كثيرة ، وبها آثار تاريخية وافرة ، إلى جانب مفهوم قول الهمداني حين قال : « ومدنها الجهوة ، ومنها تنومة »[٢] ، بالإضافة إلى ترتيب أبي الحياش الحجري لها في قصيدته ، إذ قال :

فقرى الحجر جهوة الزرع والضر ... ع فأشجانها الحنا فالجباء[٣]

فنراه ذكر الجهوة قبل الأشجان .

ويذهب عدد من الباحثين إلى القول بوجود إمارة قوية في بلاد السراة تماثل ولايتي : جُرش ، والجهوة ، بل أظهر منهما ، لما ظهر حولها من مؤلفات وافرة يقول محمود شاكر : « وكانت الكلمة الأولى في مرتفعات عسير تعود إلى أمراء آل يزيد »[٤] ، ولقد تحدث عن هذه الإمارة عدد من المؤلفات التاريخية ، مثل : « امتاع السامر » لشعيب الدوسري ، و : «عسير في مذكرات سليمان الكمالي » لأحمد بن حسن النعمي ، و «عسير» لمحمود شاكر ، و « تاريخ عسير في رسالة إبراهيم بن علي زين العابدين الحفظي » لمحمد بن مسلط ابن عيسى الوصال البشري ، وغير ذلك مما هو مذكور بعنوانه دون الوقوف على مادته ، وأقول إزاء ذلك إن الباحث يقف بشيء من الحيرة والنظر تجاه واقع بعض المصادر المحلية التي بين أيدينا الآن ، والتي تتحدث عن ساكني السروات ، إذ يفيض بعضها بذكر حياة زاهرة متفوقة ، تمثل : جانباً سياسياً وعلمياً وأدبياً متقدماً ، على حين تأتي المصادر الأخرى المعروفة على ذكر بلاد لم يطأها الناس ، ولم يعرفوها ، بلاد لم تنهض حياتها بواقع علمي مزدهر ، وإنما هي حياة قبلية متواضعة ، وذاك الواقع يدعو بالفعل إلى : القلق ، وعدم الاطمئنان .

ولقد نهضت منذ نحو عشرين سنة برحلات علمية ميدانية في : تهامة ، وعسير ، واليمن ، فلم أجد عبر تلك الرحلات : ما يدل على سبق علمي في الحياة الفكرية ببلاد

---

١ - عمر غرامة العمروي ، « حول قبيلة الحجر » العرب ج٩ ، ١٠ ، س١٠ ، (الربيعان ١٣٩٦هـ) ٦٤٦ .
٢ - الهمذاني ، كتابه السابق ١١٩ .
٣ - المصدر نفسه ٢١٧ .
٤ - كتابه السابق ١٤٥ .

السراة ، ولا على وجود مصادر مخطوطة ذات قيمة علمية معتبرة يُطمأن إليها ، ولم تكن تلك الرحلة بهينة ، وإنما هي دقيقة ، لم تغادر بفضل الله تعالى مقاماً علمياً ، ولا موطناً تاريخياً يُظنُ بأهليته إلا وانطوت عليه ، فضلاً عن جمع عدد غير قليل من آثار هذه المنطقة التاريخية المخطوطة ، وإذا كانت كتب الرحالة الذين زاروا هذه البلاد السَّرْوية ، أو تحدثوا عنها تفتقر إلى ذكر ما يدل على حياة علمية وسياسية ناهضة ، فإنما هي ومضات ، يراد من خلالها تصوير ذلك الواقع بشيء من المصداقية والوضوح . إذ العمل العلمي بحاجة عند ئذ إلى نظرة نقدية فاحصة تمكن لتلك المصادر الكثيرة أو تلغيها ، والأمر ليس بكبير مشقة ، فنظرة الباحث الفاحص الجاد تنبيء عن الحقيقة سواء كان ذلك في المعلومات التاريخية ، أم الأدبية ، وبخاصة الآثار : النثرية ، والشعرية ، ومن خلال ذلك تنبثق الحقيقة .

وفي الحقيقة أن المصادر العلمية التي بين أيدينا الآن على قلتها لم تهمل دور المشيخات القبلية المحلية ، بل أتت على ذكر بعض رجالها في تركيز شديد محدود ، ولربما أدرك المهتم بهذه الشؤون بقاء معظم أصول تلك الأسر حتى هذا اليوم ، مما يجعل الخطورة الاجتماعية تظهر في إثارة مثل هذه الأوضاع القبلية عند التعرض لأنسابها في حاضرها وموفيها ، والباحث الورع هو الذي لايستغفل الحقائق ، ولا يتسرع في إطلاق الأحكام ، بل عليه : دفع اللوم عنه ، والمآخذ الأخرى عن طريق : التثبت العلمي ، والركون إلى الدقة والتوثيق ، وبخاصة عند التأليف في هذه الجوانب الأسرية القبلية .

ولقد أتى على تحقيق هذا القول ابن المجاور في رحلته المعروفة ، إذ روي له في الربع الأول من القرن السابع الهجري عن حال مشيخات القبائل ببلدان السراة من الطائف إلى صعدة : أنها تخضع لمشيخات محلية متشابهة ، حيث قال : « يحكم على كل قرية شيخ من مشايخها كبير القدر والسن ذو عقل ، وفطنة ، فإذا حكم بأمرٍ لم يشاركه ولا يخالفه أحدٌ فيما يشيره عليهم ، ويحكمه فيهم ، وجميع مَنْ في هذه الأعمال لم يحكم عليهم سلطان ، ولا يؤدون خراجاً ، ولا يسلمون قطعة ، إلا كل واحد منهم مع هوى نفسه ، بهذا لا يزال القتال دأبهم ، ويتغلب بعضهم على مال بعض ، ويضرب قرابة زيد على أموال عمرو ، وهم طول الدهر على هذا الفن ... وهم في دعة الله وأمانه ، وهم فخوذ يرجعون إلى قحطان وغيرهم من الأنساب »[١] ، وقال أيضاً : « فأما السَّرْو فإنهم قبائل وفخوذ من العرب ليس يحكم عليهم سلطان ، بل مشايخ منهم وفيهم وهم بطون متفرقون »[٢] ، وهذا القول يتفق مع قول مقبل الذكير الذي يقول : « كان عسير السراة

١ - « صفة بلاد العرب ، ومكة وبعض الحجاز» ٣٧ ، ٣٨ .
٢ - المصدر نفسه ٢٦ .

بأول القرن الثالث عشر ليس له حكومة يرجع إليها أمره ، وإنما هو خاضع لزعماء القبيلة التي لها فضل قوة »[١] .

وإذا تبين للناظر واقع هذه القبلية عبر تلك العصور الإسلامية الوسيطة ، وأنها حقيقة قائمة ، فإن ممن ذكرتهم المصادر في هذه الأثناء : شيخ زهران الذي ذكره العصامي المكي في أحداث سنة ٩٨٧هـ ، ولم يسمه[٢] ، ومثل أولئك المشايخ السَّرْويين الذين عرض لهم الموسوي المكي في رحلته عن طريق السراة إلى القنفذة سنة ١١٤١هـ ، ومنهم : محمد بن الشيخ ضيف الله القرشي الناصري من ناصرة التي وصف أهلها بقوله : « فرأيت من أهلها المحبة والإكرام دون غيرهم من الأنام »[٣] ، ومثلُ الشيخ أحمد بن الشيخ حسن العرابي الذي قال فيه : « الجناب الكريم ، بحر الجود الرابي »[٤] الذي تلقاهم - كما قال - « بالقبول والإكرام »[٥] ، ومثل الشيخ علي بن هلال ، وأولاد الشيخ إبراهيم السني ، وآل صلاح بتهامة إذ قال فيهم : « وهم من كرام العرب أهل شيمة وأدب »[٦] و : « أهل همة وأريحية ، ونفوس حاتمية »[٧] .

وفي سنة ١١٦٥هـ عدد شعيب بن عبد الحميد الدوسري عدداً من مشايخ أهل السراة في معرض حديثه عن الأمير مرعي بن محمد ، إذ قال : « وقد اصطحب معه وجهاء : قحطان ، ويام ، وعسير : بنيان بن مهذل الصقري اليامي ، وزا بن أبو ضلوع العاطفي المطلقي ، ومحمد بن فاضل الطليلي الفاضلي الهتيلي اليامي ، ومحمد بن حرملة شيخ الحراملة ، ومحمد بن شنان شيخ الحباب ، وناصر بن الربيع شيخ الوداعيين ، ومران بن سعد أمير الدواسر ... وجليغم بن شلوان شيخ الفهر ، وابن محجود شيخ العرجا ، وابن بدر شيخ الفهاد ، وابن شعفة شيخ الرشيد ، والمهان شيخ النطيح ، وجمعان بن حمد بن سليمان العجيري الوقشي الرفيدي شيخ آل لشواط ، وحزام بن عامر العجمي ، وشفلوت الأصادي شيخ العرجان ، ومبارك بن ذمال شيخ آل جميح ، وناصر بن سعد بن محمد آل سرح شيخ شهران ، ومعتق بن محيا شيخ بللحمر ، وعواض بن مارد[٨] شيخ بللسمر ، وحزام بن ندبه شيخ آل محفوظ المعيضي ، وفرحان بن شايع بن مبارك بن مسعود شيخ شريف ، وفردان بن ظافر ... شيخ آل معمر ، ومشيط بن سالم شيخ آل

---

١ - « حوادث عسير واليمن والحجاز » ١ / ٤ .
٢ - كتابه السابق ٤ / ٣٦٩ .
٣ - حمد الجاسر ، « مع الموسي المكي في رحلته (٨) » الفيصل ع٢٣ ، س٢٠ (شعبان ١٤١٦هـ) ٣٦ .
٤ - المصدر نفسه ٣٦ .
٥ - المصدر نفسه ٣٦ .
٦ - المصدر نفسه ٣٦ .
٧ - المصدر نفسه ٣٦ .
٨ - ذكره عوض بن خزيم آل مرور الأسمري في كتابه : « قبيلة آل مارد ... »٣ مطبوع على الآلة الكاتبة غير منشور .

رشـيـد ، وشـري بن سـالم بن سـيـف شـيـخ المسـاردة ، وغـشـام بن سـالم بن عـامر آل غـشـام الرفـيـدي شيـخ قـحطان ، وثابت بن مغرم شيخ سنحان ، ومحـمد بن فاهدة شيخ ناهس ، ومحـمد بن شكبـان مع أمراء قـبائل بيشـة ، ومحـمد بن داود الداودي الخالدي ، وناصر بن مـفلح الملاطي الأصلعي الشـريفي ، وعـوض بلك سـاهر المرتفع شـيخ شـمـران ، وعلي بن المقادمي شيخ خثعم »[١] ، ولا شك أن هناك سواهم من مشايخ بلدان السراة ممن لم تذكر أسماؤهم في القائمة السابقة ، أو ممن جدّت لهم مشيخة قبائلهم بعد هذا التاريخ الواقع في العقد السابع من القرن الثاني عشر الهجري ، وممن يجب التنويه بذكرهم ضمن إخوانهم السابقين : مشايخ : قحطان ، وشهران ، ورجال الحجر ، وبللقرن ، وغامد ، وزهران ، ممن عرفوا في التاريخ ، من أمثال : آل دليم ، ومحمد بن دهمان في تنومة ، وآل رقوش ، وبخروش علاس في زهران ، وآل حموض في شعف شهران ، وغيرهم .

ويذكر أحمد بن حسن النعمي في معرض حديثه عن بني شهر برجال الحجر : « آل سلامان ، ومشايخهم العسابلة الذين كانوا يعرفون قديماً بآل عيد بن مجدوع ... من آل قعود من ربيعة إحدى بطون بني شهر ... وآل [عريف] ، وهم : شيوخ ... بني أثلة ، وآل دعبش الذين يعرفون قديماً بآل حماد من بني مروان من بني شهر ، وهم مشايخ آل الوليد بن مروان »[٢] ، وليس كلّ من ذكرت أسماؤهم هنا يمثلون حقيقة مشيخات بلدان السراة القبلية المحلية وحسب ، إذ النقص يعتور كل عمل بشري ، ولأن كتابة التاريخ قد لا تسلم من الخطل والقصور ، ولأن زوال بعض المشيخات ، وقيام أخرى أمر معهود معروف ، ناهيك عن واقع البحث العلمي وما يجب أن يتصف به كاتبه من الحياد والتوثيق ، وهو ما يجب العلم به ، إذ ليس من الأمانة العلمية في شيء التساهل في رصد المعلومات العلمية بالزيادة أو النقص ، وإنما هي أمانات تؤدى كما وجدت . وذلك ما تم رصده هنا من واقع تلك المصادر التي بين أيدينا الآن .

ولقد كان لظهور الدولة السعودية الأولى في جزيرة العرب أثر في توجيه الحياة السياسية ببلدان السراة ، إذ أقبل ساكنوها على تأييدها ، وقبول مبادىء دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وأخذ أمراؤها ومشايخها النابهون من أبنائها يؤيدون هذا الاتجاه ويدافعون عنه ، ولكنهم تفاوتوا في تاريخ قبوله ، إذ قيل بأن قبائل خثعم وبني تغلب قد استوعبت أخبار هذه الدعوة منذ نحو عام ١١٩٦هـ/ ١٧٨١م [٣]، وهو ما يجب الوقوف

١- « كتابه السابق » ٨٠ .
٢ - كتابه السابق ٨٢ .
٣ - لطف الله حجاف ، « درر نحور الحور العين » ١٠٢ .

عند درسه الآن ، ولكن الذي يجب الوعي به أن أهل السراة قد عظمت مكانتهم بهذه الدعوة ، يقول البهكلي : « وكان أهل السراة عن آخرهم عند أهل تهامة بمنزلة الخدم فلا يحتشمونهم في شيء ، ولا يرون لهم ما يرونه لغيرهم من الحق ، فلما استجابوا لدعوة ابن عبد الوهاب عظمت هيبتهم ووقع من مكانتهم ما ارتاع منه الجمهور »[1] ، وهذا يدل على تواضع الحياة السياسية قبل الدعوة ، مما يصدق معه القول بضعفها وتشتتها .

ولقد تمت بتوفيق الله تعالى دراسة هذه الفترة اللاحقة بما يعرف بالعصر الحديث في كتابيّ : « الحياة الفكرية والأدبية بجنوبي البلاد السعودية » ، و : « أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الفكر والأدب بجنوبي الجزيرة العربية » بما أغنى عن الحديث عن العصر الحديث اللاحق .

وفي الحقيقة أن الحياة الفكرية في بلدان جنوبي الجزيرة العربية بعامة ، وبخاصة اليمن[2] قبيل ظهور الدولة السعودية الأولى قد اتسمت بالتباين والاضطراب ، إذ عرفت صراعاً مذهبياً نشطاً ، وشهدت فرقة سياسية مضطربة ، هذا بالإضافة إلى انغماس شديد في البدع ، والمعتقدات الباطلة ، ويعد هذا العهد السعودي الجديد بداية واضحة لتوجيه هذه القبائل عبر العصر الحديث نحو بناء حياتهم الدينية والفكرية والاجتماعية ، بعد صرفتهم العزلة الجغرافية عن هذا التكوين الفكري السليم أمداً طويلاً غير قصير ، إذ أخذ أن علماءها ، وطلبة العلم فيها يسهمون بواجبهم تجاه أوطانهم ، فبدت آثارهم فيما تحقق في قبائلهم من نهضة علمية شاملة في ظل دولتهم الراشدة ، حيث : فتحت المدارس ، وأخذ أبناء هذه الأنحاء يخرجون نحو حواضر بلادهم من أجل التعليم ، وطلب الرزق ، مما هيأ لهم من بعد حياة مستقرة آمنة .

---

١ - « نفح العود » ، تحقيق العقيلي ١٦٥ .

٢ - انظر : « أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الفكر والأدب بجنوبي الجزيرة لعربية » للباحث .

المبحث
الثالث

ملامح حياتهم الاجتماعية :

تمثل بلاد السراة عبر هذه القرون الإسلامية الوسيطة : كُوَراً [١] متباعدة ، مثل : كورة جرش ، ومدناً متفاوتة ، مثل : مدينة الجهوة ، وقرى ظاهرة متقاربة ، مثل : بقية مساكن أهل السراة الكثيرة الوافرة ، وأودية فسيحة ، مثل : وادي تنومة ، يقول الهمداني : «جُرش هي كورة نجد العليا » [٢] ، و : « والجهوة مدينة السراة »[٣] و : « تنومة وادٍ فيه ستون قرية » [٤] ، وبهذه التقسيمات الغالبة على تكوين منازل السَّرْويين تحدّث الهمداني بهذه الصورة في القرن الرابع الهجري ، فكان شاهداً على عصره بهذه الملامح التي انتظمت كتابه في معرض حديثه عن بلاد السراة .

وفي القرن السابع الهجري وصف ابن المجاور أعمال هذه السَّروات من الطائف إلى صعدة بقوله : « جميع هذه الأعمال قرى متقاربة بعضها من بعض في الكبر والصغر ، وكلّ قرية منها مقيمة بأهلها ، كل فخذ من فخوذ العرب ، وبطن من بطون البدو في قرية ، ومن جورهم لا يشاركهم في نُزُلها وسكنها أحد سواهم ، وقد بُني في كل قرية قصر من حجر وجُصٍّ ، وكل من هؤلاء ساكن في القرية له مخزن في القصر ، يخزن في الخزن جميع ما يكون له من حَوزه ومِلْكه ، وما يؤخذ منه إلا قوت يوم بيوم ، ويكون أهل القرية محتاطين بالقصر من أربع ترابيعه » [٥] .

وفي سنة إحدى وأربعين ومائة وألف ، قال الموسوي المكي في رحلته : « نزهة الجليس ، ومنية الأديب الأنيس » : « ثم أتينا السَّراة وهي قرية كبيرة ، وبها مزارع كثيرة ، ومياه غزيرة ، وأشجار نضيرة ، وحصون شواهق ، ترى الحصن أنه بالفلك الأطلسي لاحق»[٦] ، وقال : « أقول : السراة متصلة إلى ديار بجيلة ، وزهران ، وعَنْز ، وبني القَرن ، وبني شبّابة ، والمعافر ، وفيها : قرى عظيمة ، وجبال »[٧] ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ القُرَى التي بَارَكْنَا فِيْهَا قُرىً ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فيها السَّيْرَ سِيْرُوا فِيْهَا لَيَاليَ وأيَّاماً آمنِينَ ، فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ، وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُم أَحَادِيثَ

١ - «جمع كُورْه ، وهي : الصقع والبقعة التي يجتمع فيها قرى ومحال » المعجم الوسيط » ٢ / ٨١١ .
٢ - كتابه السابق ١١٧ .
٣ - المصدر نفسه ١٢٢ .
٤ - المصدر نفسه ١٢١ .
٥ - كتابه السابق ٣٧ ، ٣٨ .
٦ - حمد الجاسر ، مجلة الفيصل ، ع ٢٣٠ ، س ٢٠ ، (شعبان ١٤١٦هـ) ٣٦ .
٧ - المصدر نفسه ٣٦ .

وَمَزَّقْنَاهُم كُلَّ مُمزَّق إنَّ في ذَلكَ لآيات لِّكُلِّ صَبَّار شَكُور ﴾[1]، فالبلاد السروية – كما قال الهمداني : « نبذٌ من قرى وزروع »[2]، و : « فيها من الأمم، والبلاد ، والمدن ، والقرى مالا يُعدّ ولا يُحصى ، ولا تحويه أقلام الدواوين أي في : صنعة الحساب »[3] .

ولقد تحدث المؤرخون والرّحالة عن شيء من مظاهر التكوين العمراني لمساكن أهل السراة ، فذكروا : حصونها ، وطرفاً من قصورها ، يقول الهمْداني : « الرّفيد بلد الحصون»[4]، وقال ابن المجاور : « وقد بُني في كل قرية قصرٌ من حجر ، وجُصّ »[5]، وليست هذه المظاهر ببعيدة عن التكوين العمراني المعروف ، والمتمثل في : الحجر ، والطين اللذين يظهران بوضوح في شمالي بلاد السراة وفي جنوبها ، إذ لكل بيئة ظروف مناخية تستدعي هذا التكوين ، ولقد أحسن أحدُ الكاتبين حينما عرض لهذه المظاهر الاجتماعية في وصفه لمدينة النماص في مرحلة متأخرة من هذا العهد الذي نعرض لملامحه ، إذ قال : و«بلدة النماص تتألف من ثلاثمائة منزل»[6]، « وجميع منازل النماص فخمة مبنية بالحجارة ، وهي ذات طبقتين أو ثلاث طبقات ، وجدران المنازل مطلية بالكلس (الجير) ، وأهاليها يمتازون عن غيرهم بلباسهم وعادتهم ، بل بألوانهم ، وأسلوب معيشتهم ، وأستطيع أن أقول : إن أهالي بني شهر أعرق أهالي عسير حضارة وتهذيباً »[7]، قلت : إذا كان هذا الكاتب ، قد أُعجب بلباس الحجريين من أهل النماص في تلك الفترة الأخيرة من هذه الدراسة ، فإن السَّرْويين الأزديين الذين كانوا يفدون إلى مكة للتجارة في آواخر القرن السادس الهجري – على سبيل المثال – لم يكونوا كذلك ، إذ كانوا : « لا ملبس لهم سوى أُزُر وسخة أو جلود يستترون بها وهم مع ذلك أهل بأس ونجدة ، لهم القسي العربية الكبار كأنّها قسي القطانين لا تفارقهم في أسفارهم »[8]، وقال عند ئذ في هذا الشأن ابن بطوطة : « وهم شجعان أنجاد لباسُهم الجلود ، وإذا وردوا مكة هابت أعراب الطريق مقدمهم ، وتجنّبوا اعتراضهم » [9]، ولكنه استدرك تعاملهم مع الناس ، وحسن خلقهم ، فقال : «ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم »[10]، ولعل سبب ذلك كله يعود إلى اختلاف طبقات المجتمع ، ولأنهم قوم سفر ، ليسوا مستقرين .

---

١ – آيتا ١٨ ، ١٩ سورة سبأ .
٢ – كتابه السابق ١٢٢ .
٣ – كتابه السابق ٣٨
٤ – كتابه السابق ١١٨ .
٥ – كتابه السابق ٣٨ .
٦ – أحمد بن حسن النعمي ٢٣٨ .
٧ – المصدر نفسه ٢٣٨ .
٨ – كتابه السابق ١١٢ .
٩ – « تحفة النظار » ١ / ٩٧ ، وكانت بداية رحلته في يوم الخميس الثاني من شهر رجب (٧٢٥هـ) ، منطلقاً من مدينة طنجة بالمغرب العربي .
١٠ – المصدر نفسه ١ / ٩٧ ،

ويصف الموسوي المكي هذه المظاهر العمرانية في نحو منتصف القرن الثاني عشر الهجري بأبعد مما نتصوره الآن ، إذ عرض لبيئتين اجتماعيتين إحداهما في جبال السراة ، والأخرى في تهامتها ، حيث قال في وصف البيئة الأولى : « ثم أتينا السراة ، وهي : قرية كبيرة » [١] ، وبها : « حصون شواهق ، ترى الحصن أنه بالفلك الأطلس لاحق » [٢] ، وقال في وصف البيئة الثانية : « إنهم يسكنون الكهوف »[٣] ، وليس هذا القول بغريب ، إذ يتفاوت الناس بهذه البلاد في طرق معيشتهم ، ولعل من أهم ما يثير اهتمام الدارس لحضارة هذه البلاد تلك الآثار الشاهدة بوادي عياء ببادية بللحمر : « فهناك ما يقارب خمسة عشر حصناً سامقاً لازالت ماثلة للعيان ، ومنها قصر يتكون من خمسة أدوار »[٤] ناهيك عن وجود : الآبار ، والمقابر المرتفعة ، والمظاهر الحضرية الأخرى ، ويشبه هذا الموقع غيره بجبال السراة ، مثل : آل روحان ، وجبل جرب ببللقرن ، وترج ، وفرعة سلامان ، وجبل منعا ، وأروى بقريش ، من بلاد رجال الحجر ، بل معظم أحواز بلدان السراة وجبالها .

ولقد وصف أهل السراة بالفصاحة ، حيث قال عنهم الحسن بن أحمد الهمداني في القرن الرابع الهجري : « ثم الفصاحة من العرض في وادعة ، فجنب ، فيام ، فزُبيد ، فبني الحارث ، فما اتصل ببلد شاكر من نجران إلى أرض يام ، فأرض سنحان ، فأرض نهد ، وبني أسامة ، فعنز ، فخثعم ، فهلال فعامر بين ربيعة ، فسراة الحجر ، فدوس ، فغامد ، فيشكر ، ففهم ، فثقيف ، فبجيلة ، فبنو علي »[٥] ، ولقد كان : الهمْداني : يصف لغات بعض قبائل الجزيرة العربية بما دون ذلك كأن يقول عند تعرضه لبعض قبائلها : أهل كذا : «ليسوا بفصحاء» [٦] ، « وربما كان فيهم الفصيح »[٧] ، أو « ردي اللغة منهم قليل»[٨] ، أو : « فيهم تعقد»[٩] ، أو : « في لغتهم تعقد »[١٠] ، أو : « خليطي من متوسط بين الفصاحة واللكنة »[١١] ، أو « من فصيح ودون ذلك »[١٢] ، وربما ذكر فيهم اللغة الحميرية ، فقال : « وفي كلامهم شيء من هذا التحمير ، ويجرون في كلامهم ، ويحذفون فيقولون : يابن معم في : يابن العم ، وسِمع في اسمع » [١٣] ، وكذا « فصحاء

---

١ – حمد الجاسر ، « نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس » الفيصل ع٢٣٠ ، س٢٠(١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)٣٦ .

٢ – المصدر نفسه ٣٦ .

٣ – المصدر نفسه ٣٦ .

٤ – علي آل عمر عسيري ، « في وادي عياء آثار شاهدة لأجيال بائدة » الجنوب ، ع٤٧ ، س٤ ، (ذو القعدة ١٤٠٧)ص٢٩

٥ – كتابه السابق ١٣٦ .

٦ – المصدر نفسه ١٣٤ .

٧ – المصدر نفسه ١٣٤ .

٨ – المصدر نفسه ١٣٤ .

٩ – المصدر نفسه ١٣٥ .

١٠ – المصدر نفسه ١٣٥ .

١١ – المصدر نفسه ١٣٥ .

١٢ – المصدر نفسه ١٣٥ .

١٣ – المصدر نفسه ١٣٤ .

إلا في مثل قولهم أم رجل وقيد بعيراك ، ورأيت أخواك »[١]، أو قوله : « لغتهم مولدة ردية وفي بعضهم نوك وحماقة إلا من تأدب »[٢]، أوقوله : « لا بأس بلغتهم »[٣]، و « لا بأس بفصاحتهم»[٤]، إلا في بعض عرب السراة، فقد قال: إن الفصاحة فيهم [٥]. ولكنه قال: « إن أسافل سروات هذه القبائل ... دون أعاليها في الفصاحة »[٦]، وذاك شاهد عصري على لغة هؤلاء السَّرَويين في وقت متقدم من تاريخهم الاجتماعي ، ولذلك أصاب مَنْ قال : « أفصح الناس أهل السروات »[٧]، وربما ساعد أهل السراة على ثباتهم في لغتهم أن جبالهم كانت : « أحصن الجبال للدفاع ، ورجالها من صفوة العرب »[٨]، حيث احتفظ ساكنوها بفصاحتهم لصعوبة أرضهم ، وقلة الواصلين إليها [٩]، ولقد أثنى ابن جبير على لغتهم حينما شاهد رجالاً منهم في موسم حج عام ٥٧٩هـ ، إذ قال : « والقوم عرب صرحاء فُصحاء »[١٠]، « لم تغذّهم الرقة الحضرية ، ولا هذبتهم السير المدنية »[١١]، وقال : « أما فصاحتهم فبديعة جداً »[١٢]، ولقد لفت انتباه ابن جبير عند ئذ حال طفل سَرْوي يقرأ في الحِجرْ على أحد الحجاج سورتي : الفاتحة ، والإخلاص ، إذ قال : « إنّ المعلم الحاج « كان يقول له : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ﴾ ، فيقول الصبي (بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله) ، فيعيد عليه المعلم ، ويقول له : لا تقل (و) الحمد لله ، إنما قل : الحمد لله ، فيقول الصبي : إذا قلت : بسم الله الرحمن الرحيم ، أقول : والحمد لله ، للاتصال ، وإذا لم أقل : بسم الله ، وبدأتُ قلت : الحمدُ لله ، فعجبنا من أمره ، ومن معرفته طبعاً بصلة الكلام ، وفصله دون تعلم »[١٣]، ولقد أيد هذه الفصاحة في لغة أهل السراة ابن بطوطة ، إذ قال : « وأهلها فُصحاء الألسن »[١٤].

ولذلك يدرك الناظر في لغة أهل عسير المحكية اليوم أنها تنطوي على كلمات فصيحة لها في العربية أصل ، بل هي حية معروفة ، كما عرفها الإنسان العربي قبل الإسلام ، ولذلك نجد في كتاب الله العزيز الكثير من ألفاظ لغة الأزد التي استوعبها القرآن الكريم

١ – المصدر نفسه ١٣٥ .
٢ – المصدر نفسه ١٣٤ .
٣ – المصدر نفسه ١٣٤ .
٤ – المصدر نفسه ١٣٥ .
٥ – المصدر نفسه ١٣٦ .
٦ – المصدر نفسه ١٣٧ .
٧ – عبد الرحمن بن زبن المرشدي،« غامد وزهران وبنو عمرو» العرب،ج٣، ٤، س٣٠ (رمضان، شوال١٤١٥هـ) ص٢٢٣.
٨ – إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن ، « تذكرة أولي النهى والعرفان » ٣ / ٢٠ / ٢١ .
٩ – محمد بن أحمد العقيلي ، « نجران » ٥٤ .
١٠ – كتابه السابق ١١١ .
١١ – المصدر نفسه ١١١ .
١٢ – المصدر نفسه ١١٣ .
١٣ – المصدر نفسه ١١٣ .
١٤ – كتابه السابق ١ / ٩٧ .

كغيرها من لغات قبائل الجزيرة عند نزوله ، ولقد نهضتُ في مطلع حياتي العلمية[١] بجمع عدد مناسب من ألفاظ الحجريين ، ودونتُها في كتاب أوليٍّ لازلت احتفظ به حتى الساعة ، وقد سميتُه يومئذ : « كلمات لها في العربية أصل » ، ولقد دعوت نجباء الطلاب الذين أثق بإخلاصهم العلمي ممن شرفت بتدريسهم في كلية اللغة العربية بالجنوب أن يجمعوا شيئاً من هذه الكلمات الفصيحة ، وأن يسعوا في توثيقها وربطها بالفصيح اللغوي في المعاجم اللغوية ، وأظن أن بعضاً من أولئك الدارسين قد فعل ، ولكي نقف على أمثلة من ذلك ، انظر إلى قول الله تعالى : ﴿ فَانْفِروا ثُبَاتٍ أو انفِرُوا جَميعاً ﴾[٢] ، وقوله تعالى : ﴿ واللّـهُ أركَسَهُم بما كسبوا ﴾[٣] ، وقوله تعالى : ﴿ فَهَبْ لي من لَدُنك ولياً ﴾[٤] ، ألا ترى أن ألفاظ : « ثُبات » ، « أركسهم » ، « هب » لازالت تستعمل بمدلولها اللفظي حتى الآن ، وأن الناس – على سبيل المثال – في قرية الصفحة بتنومة بني شهر يستعملونها ، ويتعاملون بها .

وتتضح ملامح حياة هؤلاء السَّرْويين في شيء من مظاهر معاشِهم ، إذ هم في الغالب : أهل زراعة ، ورعي ، وتجارة : أما الزراعة فقد أفاض المؤرخون والرحالة الجغرافيون في ذكرها ، وأنها تكاد تكون المهنة الكبرى في حياة الناس بهذه الأنحاء ، يقول الهمداني – على سبيل المثال : « ثم تندحة وهي العين من أودية جُرش ، وفيها : أعنابٌ ، وآبار»[٥] ، وقال : « وبسراة الحجر : البرّ ، والشعير ، والبلسن ، والعتر ، واللوبياء ، واللوز ، والتفاح ، والخوخ ، والكمثري ، والأجاص ، والعسل »[٦] ، وقال : « وبخاط نخلات »[٧] ، وفي نحيان : « التفاح ، واللوز ، والثمار »[٨] ، وقد عُرِفت جُرش قبل القرن الخامس الهجري بنتاجها للعنب الجُرشي المشهور[٩] .

وإذا كان اشتغال الأهلين السَّرْويين في القرن الرابع الهجري بالزراعة ، فإن ذلك كان ديدنهم أيضاً في الربع الأول من القرن السابع الهجري ، إذ وصف ابن المجاور رجالهم بقوله : «وجميع زرعهم : الحنطة ، والشعير ، وشجرهم الكروم ، والرمان ، واللوز ، ويوجد عندهم من جميع الفواكه ، والخضروات : أكلهم السمن ، والعسل »[١٠] وشربهم : « من أنهر سائحة ، وبعضهم يشرب من آبار ماؤها خفيف على الفؤاد ذات هضم

١ – منذ نحو ربع قرن ، حين كنت طالباً في السنة الثانية بكلية الآداب جامعة الرياض (الملك سعود)عام ١٣٩٤هـ .
٢ – آية ٧١ سورة النساء .
٣ – آية ٨٨ سورة النساء .
٤ – آية ٥ سورة مريم .
٥ – كتابه السابق ١١٨ .
٦ – المصدر نفسه ١٢٣ .
٧ – المصدر نفسه ١٢٣ .
٨ – المصدر نفسه ١٢٢ .
٩ – محمد أحمد معبر ، « مدينة جُرش » ٤٠ .
١٠ – كتابه السابق ٣٨ .

ولذة»[١]، وهم كذلك في القرون الأخيرة الماضية يقول الموسوي المكي : إنه كان ببلاد السراة عند زيارته لها سنة (١١٤١هـ) : «مزارع كثيرة ، ومياه غزيرة، وأشجار نضيرة»[٢]، ولقد صدق وصفه على البلاد السَّرْوية الأخرى التي زارها عبر هذه الرحلة ، حيث تعد الزراعة عند أهل السراة من الموارد الأساسية لبناء حياتهم .

ويتصل عملهم بالزراعة فيما يُحسنونه من أعمال اجتماعية حياتية أخرى ، إذ اعتادوا الرعي والاشتغال[٣] به ، مما جعل المؤرخين المهتمين بهذه المنطقة يذكرونه ، ويتحدثون عنه ، يقول الهمداني : « والصحن مراع بني شهر »[٤]، وقال في معرض حديثه عن سراة الحجر : « في غربيها البقرُ ، وأهلُ الصيد ، وشرقيها من نجد أهل الغنم والإبل » [٥] ، ولقد اشتهرت جُرش بإبلها[٦] ، وليس المقام هنا مقام تفصيل وتبيان ، وإنما هي شواهد ودَّ الباحثُ عرضها للإيضاح والإبانة ، وإلا فبلاد السراة عبر هذه القرون الوسيطة : « حصينية متسعة كثيرة التين، والعنب ، واسعة الحرث ، وافرة الغلات » [٧] ، يقول ابن بطوطة : عند ئذ « وبلاد السَّرْو التي يسكنها بجبلة وزهران وغامد وسواهم من القبائل : مخصبة كثيرة الأعناب ، وافرة الغلات »[٨] .

ولم تكن هذه الحياة الزراعية الرعوية تسلم من : الأدواء ، والأوباء ، والظروف المختلفة ، بل كانت تتعرض إلى شيء من الكوارث الطبيعية ، ودواعي الجدب ، والغلاء ، والجراد ، ونحو ذلك ، يقول ابن كثير إنه في عام (٥٩٧هـ) : « وقع وباء شديد ببلاد عنزة بين الحجاز واليمن . وكانوا عشرين قرية ، فبادت منها ثماني عشرة لم يبق فيها ديّارٌ ولا نافخ نار »[٩] ، ويقول ابن فهد في كتابه « إتحاف الوردي » في أحداث سنة (٨٤٣هـ) ، و : « فيها وقع بالطائف ووجّ ، وليه ، وعامة بلاد الحجاز : وباء عظيم ، هلك فيه من ثقيف وغيرهم من العربان عالم لا يحصيهم إلا الله ، بحيث صارت أموالهم ونعُمهم لا مالك لها ، واستولى عليهم سواهم ، وامتد هذا الوباء إلى نخلة ولله عاقبة الأمور »[١٠]، وقيل أيضاً في أحداث سنة (٩٧٩هـ) ، إنه : « وقع القحط والغلاء في أرض الحجاز ، وانقطعت المأكولات في الأسواق وهلكت الدواب »[١١]، حتى قيل في

---

١ - ابن المجاور ، كتابه السابق ٣٨ .
٢ - حمد الجاسر ، « نزهة الجليس ، ومنية الأديب الأنيس » الفيصل ع٢٣٠ ، س٢٠ (شعبان ١٤١٦هـ) ٣٦ .
٣ - تمثل هذه الوجهة طبقة اجتماعية واسعة ، وبخاصة في تهامة السراة ونجدها .
٤ - كتابه السابق ١٢٢ .
٥ - المصدر نفسه ١٢٣ .
٦ - محمد أحمد معبر ، كتابه السابق ٤٠ .
٧ - ابن جبير ، كتابه السابق ١١١ .
٨ - كتابه السابق ١ / ٩٧ .
٩ - كتابه السابق ١٣ / ٢٦ .
١٠ - « إتحاف الوردي » ٤ / ١٤٠ .
١١ - محمد الشلي اليمني ، « السنا الباهر بتكميل النور السافر » مخطوط ٦٦٦ .

أخبارها : إن شخصاً أطلق : « حماره للعجز عن إطعامه ، فذبحه جماعة من البادية وأكلوه ، وكثُر الموت في الفقراء حتى عجزوا عن أكفانهم ، واشتدت الضرورة فاتفقوا على الاستسقاء ، وأُمر الناس بالصيام »[1] ، حتى قيل : إنّ اللـه سبحانـه وتعالى أغاثهم ، وأن الناس كانوا يُصلون بعد ذلك : « والمطر يمطر وارتفع الغلاء ولله الحمد »[2] ، وفي سنة سبعين وألف من الهجرة : « حصل غلاء بمكة »[3] ، وكان سببه : « كثرة الجراد بأرض : الحجاز ، واليمن ، وأعقبه الدّبا فأكل : جميع الأشجار ، والزراعات »[4] .

أما التجارة في بلاد السراة فهي : عامرة ظاهرة يدل عليها نشاطهم ، وتحركهم في أسواق أرضهم ، أو ما يجاورها ، وليس أظهر في القول من حديث ابن جبير سنة (٥٧٩هـ) عن السَّرْويين ، حينما عرض لوفادتهم إلى مكة المكرمة من أجل التجارة في موسم حج ذاك العام ، إذ عقد في رحلته المعروفة المنشورة باباً عنوانه : « السَّرو المائرون » ، قال فيه – كما حدثه أحد المجاورين[5] – إن قبائل تعرف بالسَّرْو أو السَّراة : « أهل جبال حصينة »[6] ، كانوا : « يستعدون للوصول إلى هذه البلدة المباركة قبل حلولها[7] بعشرة أيام ، فيجمعون بين النية في العمرة وميرة البلد بضروب من الأطعمة كالحنطة وسائر الحبوب إلى اللوبياء إلى ما دونها ، ويجلبون : السمن ، والعسل ، والزبيب ، واللوز فتجمع ميرتهم بين الطعام والإدام والفاكهة ، ويصلونِ في آلاف من العدد رجالاً وجمالاً موقرة بجميع ما ذُكر ، فيُرغدون معايش أهل البلد ، والمجاورين فيه ، يتقوتون ويدّخرون ، وترخص الأسعار ، وتعم المرافق ، فيُعد منها الناس ما يكفيهم لعامهم إلى ميرة أخرى ، ولولا هذه الميرة لكان أهل مكة في شظفٍ من العيش »[8] .

ويضيف ابن جبير إلى ذلك قوله : « ومن العجب في أمر هؤلاء المائرين أنهم لا يبيعون من جميع ماذكرناه بدينار ولا بدرهم ، إنما يبيعونه بالخرق والعباءآت والشمل ، فأهل مكة يعدون لهم من ذلك مع الأقنعة والملاحف المتان ، وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب ، ويبايعونهم به ويشارونهم ، ويُذكر أنهم متى أقاموا عن هذه الميرة ببلادهم تجدب ، ويقع الموتان في مواشيهم وأنعامهم ، وبوصولهم بها تخصب بلادهم وتقع البركة في أموالهم ، فمتى قرب الوقت ، ووقعت منهم بعض غفلة في التأهب للخروج اجتمع نساؤهم فأخرجنهم ، وكل هذا لطف من الله تعالى لحُرمة البلد الحرام »[9] ، ولقد ذكر

---

١ – المصدر نفسه ٦٦٦ .
٢ – المصدر نفسه
٣ – العصامي المكي ، كتابه السابق ٤ / ٤٧٠ .
٤ – المصدر نفسه ٤ / ٤٧٠ .
٥ – اسمه : « تقي الدين أبو عبد الله المعروف بابن الصيف (... – ٦٠٧هـ) انظر«العقد الثمين» للفاسي ١ / ٤١٥ .
٦ – كتابه السابق ١١٠ .
٧ – أي : العمرة .
٨ – كتابه السابق ١١٠ .
٩ – المصدر نفسه ١١٠ ، ١١١ .

مثل هذا ابن بطوطة في رحلته ، إذ قال : « وأهل الجهات الموالية لمكة ، مثل : بجيلة ، وزهران ، وغامد يبادرون لحضور عمرة رجب ، ويجلبون إلى مكة : الحبوب ، والسمن ، والعسل ، والزبيب ، والزيت ، واللوز ، فترخص الأسعار بمكة ، ويرغد عيش أهلها ، وتعمهم المرافق »[١] ، وأضاف ابن المجاور إلى ذلك قوله : « فإذا دخلوا مكة ملاؤها خبزاً من الحنطة ، والشعير ، والسويق ، والسمن، والعسل ، والذرة ، والدُخن ، واللوز ، والزبيب ، وما شابه ذلك، وكذلك يقول أهل مكة : حاجُّ العراق أبونا نكسب منه الذهب ، والسَّرْو أُمنًّا نكسب منهم القوت »[٢] ، ولقد عد ابن المجاور نفسه : مدينة نجران في الربع الأول من القرن السابع الهجري ، من المراكز التجارية القوية ، وقال بأنّ : عليها المعول في البيع والشراء »[٣] .

ولقد انشرح صدر أحد الأدباء المعاصرين لقراءة ما أورده ابن جبير في رحلته ، إذ قال : « وعرفت من سياقه أيضاً أنه يقصد بالسَّرو أهل جبال السراة ، جبال الحجاز الجنوبية بالنسبة للمملكة العربية السعودية ، واختصر الكلمة بالسرو . وكان من حقه أن يقول السّرويون »[٤] ، وأضاف إلى ذلك قوله « وجبال السراة معروفة ، وسكانها معروفون، وكثير منهم من قبائل : زهران ، وغامد ، وعسير ، وقحطان وغيرهم ، ومنهم: أهل منطقة الباحة، ومنطقة أبها، وقد شاهدنا في العقد السابع من هذا القرن [٥] الهجري إتيانهم بالميرة من بلادهم إلى مكة والطائف وقوافلهم من الأبل ، وكان من هذه الميرة الشيء الكثير من القمح الممتاز » [٦] .

وعلى الرغم من قوة حركة الرحلة ، والتنقل من أجل التجارة ، لم يكن الناس يومئذ يأمنون على أنفسهم وتجارتهم من بوائق قطاع الطرق ، والساعين في الأرض بالفساد ، فقد ذكر الهمداني في معرض حديثه عن بعض بلدان السراة : بعض الوقائع والأحداث ، إذ قال : « وذات عشٍ ، وبها قبور الشهداء سابلة ، وحجاج قتلوا »[٧] ، وهذا يدل على أنه قد أصابتهم غدر أولئك العابثين من قطاع الطرق السُّراق ، ولم يكن أيضاً طريق الحج آمناً بما يكفل للحجاج الاستقرار وطلب الرزق ، فلقد تكرر شيء من ذلك بمثل ما أورده العصامي في كتابه « سمط النجوم العوالي » ، إذ قال في أحداث عام (١٠٧٨هـ) أنه «وقع في طريق الطائف أن جماعة الحمَّارة المترددين بين مكة والطائف من طريق كرا بأموال

١ - كتابه السابق ١ / ٩٧ .
٢ - كتابه السابق ٢٧ .
٣ - المصدر نفسه ٢٠٩ .
٤ - عبد القدوس الأنصاري ، « مع ابن جبير في رحلته ، ١٩٧ .
٥ - الرابع عشر الهجري .
٦ - المرجع نفسه ١٩٧ ، ١٩٨ .
٧ - كتابه السابق ١١٥ .

الناس وأمتعتهم ، نزل عليهم جمع من عرب الشرق ، فأخذوهم وربطوهم وساقوهم وضربوهم ، وانتهبوهم ثم ساروا بهم إلى قرب المبعوث ، ثم أطلقوهم بعد يومين عرايا مسلّبين مجرّحين مضروبين »[1] ، مما يدل على عبث هؤلاء السَّارقين ، وغدرهم ، وأن الناس من أهل السراة حينذاك قد شهدوا مشقة في تأمين عيشهم وحفظ أموالهم ، وبخاصة إذا علمنا أن مفهوم عرب الشرق ، إنما هم عرب السراة أنفسهم .

ولقد انتظم حياة الناس بجبال السراة عبر هذه الفترة أمرٌ يتصل بالتجارة وحركتها ، ويتمثل في الأسواق المحلية ، إذ هي كثيرة وافرة لا يحاط بذكرها كلها في هذا المقام ، وإنما لزم التنويه بذكرها هنا لورود بعضها في المصادر العلمية المهمة . ولكي نثبت أهميتها ، ويكون ذكرها دليلاً على وجود غيرها ، ومنها : ما عرض لخبره ابن المجاور في الربع الأول من القرن السابع الهجري في طريق وصفه للبلدان من الطائف إلى صعدة ، إذ قال : «وإلى الصّفا أربع فراسخ ، وهو سوق يوم الجمعة »[2] ، وأنه : « إلى خفن أربع فراسخ ، وإلى مدر أربع فراسخ ، وهو سوق يلتام فيه الخلق ليلة الجمعة »[3] ، وهذان السوقان يقعان في الطريق من الطائف إلى ذهبان ، إذ قال ابن المجاور أيضاً : « وإلى عضة عرين أربع فراسخ ، وإلى بلاد بني قرن أربع فراسخ ، وإلى بلاد بني عبد الدار عشرين فرسخاً ، وإلى ذهبان سبع فراسخ »[4] ، وعلى الرغم من عدم اشتهار هذه المواضع في زماننا ، ولا الأسواق التي تعقد فيها ، فإنها تحتل في مفهوم هذا القول مكانة تاريخية علمية مناسبة .

ومن تلك الأسواق : سوق الخميس الذي ذكره العصامي المكي سنة (٩٨٧هـ) ، ويسمى - كما قال - زهران[5] ، و : « يتصل به قرن ظبي والصّفا والخواة وجبل عظيم يسمى ملس »[6] ، ولعل صفا التي وردت في النص السابق هي البلدة التي تحتضن سوق الجمعة السابق ، وبخاصة أن المراد بكلام العصامي في شأن الاتصال ، إنما هو في نظري اتصال تجاري مألوف .

ومن الأسواق الأسبوعية التي ذكرها الموسوي المكي عبر رحلته بطريق السراة إلى القنفذة سنة (١١٤١هـ) : سوق الضراب ، « وهو سوق بأعلى ريع صغير ، وفيه حوانيت موضومة بالصخر ، وتحته بساتين ، وأشجار ، وفواكه ، وآبار »[7] ، وذكر في أغوار السراة

١ - كتابه السابق ٤ / ٤٩٣ .
٢ - كتابه السابق ٣٧ .
٣ - المصدر نفسه ٣٧ .
٤ - المصدر نفسه ٣٧ .
٥ - كتابه السابق ٤ / ٣٦٨ .
٦ - المصدر نفسه ٤ / ٣٦٨ .
٧ - حمد الجاسر ، « نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس» الفيصل ع٢٣٠ ،س٢ (شعبان ١٤١٦هـ) ٣٦ .

سوقين سماهما : سوق الأحد ، وسوق الاثنين ، وقال بأنه سوّقهما في رحلته المذكوره[١] ، ولا يجهل أحد ذكر أسواق السراة : عامرها وموفيها ، إذ هي معروفة في أماكنها مشهورة في ذكرها ، ولقد أحسنت إمارة عسير اليوم في إحيائها ، وتنشيطها ، والذي لا ريب فيه أن لهذه الأسواق : وثائق خطية مهمة ، تقوم على تنظيمها وضبط واردها ، ومن يأمُّوها ، وبخاصة تلك الأسواق العامرة في القرون الأخيرة القريبة الماضية[٢] ، إلى جانب القول على حقيقة وجودها ، وارتباطها بحياة الناس ، فلقد ذكر القاضي محمد بن علي الشوكاني (١١٧٣ - ١٢٥٠هـ) قصة الرجل الصالح بقرية الحُمْرَة شامي بلدة الحرجة المعروفة في القرن التاسع ، وأنها أصبحت : « قضية موعظة يتوعظ بها الناس في أسواق تلك البلاد »[٣] ، مما يدل على انتشارها واهتمام الناس بها .

ولعل من أشهرها أسواق : الثلاثاء بأبها ، والسبت ببني رزام ، والسبت بالعلاية ببللقرن ، والخميس ببني ميمون بخثعم ، والسبت بتنومة بني شهر الذي يقال بأن تأسيسه كان في القرن الخامس الهجري ، هذا بالإضافة إلى أسواق : قبائل : قحطان ، وشهران ، وعسير ، ورجال الحجر ، وبللقرن ، وغامد ، وزهران ، ورجال ألمع ، ومحائل ، وبارق ، والمخواة وغيرها .

ولم تكن الطرق في جبال السَّرْاة بقليلة الأهمية ، بل هي - على صعوبتها - ذات فوائد كثيرة ، إذ خدمت هؤلاء السَّرْويين في : شتى مناحي حياتهم الدينية ، والاقتصادية ، والعلمية ، فعن طريقها يصلون إلى : الحرمين الشريفين لأداء مناسكهم ، وتصدير منتجاتهم ، وهم يسلكونها عند رحلتهم لطلب العلم ، وقضاء مصالحهم الكثيرة الوافرة ، بل هي معبر للوافدين إليهم من : اليمن ، أو الحجاز بما كوَّن لها أهمية قصوى في حياة هؤلاء السَّرْويين ، وتتفق المصادر على وجود طريقين معروفتين بجبال السَّراة ، الأولى عن طريق : ذهبان ، بيشة ، الطائف ، والأُخرى عن طريق : « الجزعة ، إلى الحمراء ما بين بللسمر ، وبللحمر[٤] ، ... ثم المضفاة ، ثم ساق الغراب ، ثم تنومة ، ثم النماص من بلاد بني شهر ، ثم غامد إلى رغدان[٥] » حتى مكة المكرمة ، وتعرف بطريق الحاج ، أو محمل الجبال ، وفيها يقول أحد الباحثين المعاصرين : « وهو يشق بلاد رجال الحجر »[٦] ، وأضاف إلى ذلك قوله : أنه يعد : « حلقة الاتصال بين اليمن والسراة ثم الحجاز في قديم

---

١ - المصدر نفسه ٣٦ .
٢ - للباحث جهود علمية مناسبة في هذا الجانب .
٣ - البدر الطالع ١ / ٤٩٣ .
٤ - في الأصل : « بني الأسمر ، وبني الأحمر » .
٥ - محمد بن أحمد الحجري : « كتابه السابق » مج ٢ / ج٣ / ٦٠٤ .
٦ - سعيد بن عوض الأسمري ، « تاريخ رجال الحجر » ١٤٩ .

الزمان وحديثه ، وأنا أذكر أن جحافل الحجاج ، وقوافل التجارة من جنوب الجزيرة إلى حجازها تتخذ هذا الطريق مسلكاً ، وأعرف أن بعضه كان ولا يزال مرصوحاً بالحجارة ليسهل السير فيه »[1] ، ولم تبلغ هذه الطريق منزلة الأولى لأنها فيما يبدو لم تكن سالكة الرحلة لبعدها ، ولأن مَنْ يمر عليها إنما يقصد التجارة أو الرحلة ، يقول العمودي : « ثم تفترق الطرق من عدن إلى مكة فطريق تصعد الجبال ، وطريق تسلك تهامة ، فأما طريق الجبال [فمن][2] صعدة إلى الطائف عشرة أيام في كل مرحلة جامع ، ومصانع للماء ، ثم عقبة الطائف »[3] ، ويبدو أن هذه الطريق تنقسم ثلاثة أقسام : الطريق الرئيس من ذهبان إلى بيشة ، ثم الطائف ، أو عن طريق عقبة تية الساحل ، أو طريق الجبال عن طريق السروات يقول الحجري نفسه في شأنها : « ومن جبال عسير طريق حاج اليمن من جهة صعدة يخرجون بلاد الحرجة من سنحان ، ثم الوقشة من بلاد عبيدة ، ثم درب سلمان بعبيدة ، ثم درب العقدة لرفيدة ، ثم ذهبان بلاد ابن مشيط ، ثم شهران شرقي أبها على نحو ثلاث ساعات ، ثم الجزعة من شهران ، ومنها ينحدر أهل المطي ، ومن يريد طريق ساحل تهامة فمن رأس عقبة تية ، ثم وادي بعرور ، وهو واد ضيق على مسير ١٨ ساعة من الشرق إلى الغرب ، ومنه يخرجون إلى سبت محايل . وأما محمل الجبال فيمرون من الجزعة إلى الحمراء ما بين بني الأسمر وبني الأحمر ... ثم المضفاة ثم ساق الغراب ، ثم تنومة ، ثم النماص من بلاد بني شهر ثم غامد إلى رغدان »[4] .

ولقد عرفت الطريق الأولى : طريق ذهبان ، بيشة ، الطائف منذ عصر صدر الإسلام، ولكنها اشتهرت في عهد حسين بن سلامة (...-٤٠٢هـ) الذي كان « دليلاً للحاج على طريق السراة خمس عشرة سنة »[5] ، وتتمثل هذه الطريق في وقت متأخر من عمرها : في مرور سالكيها ببلاد : « سنحان بأرض الحرجة ، ومن بلاد شريف ببني طلق ، ومنها إلى العسران ... ودرب بني سليمان في بني بشر حتى يصلوا إلى ذهبان قاعدة شهران ... ومنها إلى أبي البطانة ، وفيها ثلاث آبار ثم إلى الغربية ، وفيها أربع آبار وبعدها بيضان ، وفيها ست آبار ، وبعدها : وادي بيشة ، ومنها إلى قرية رانية ، وبعد مرحلتين يصلون إلى بطن كرا ، وبعده وادي تربة ، وبعده ناحبة ، وفيها بئران وحفائر ، وبعدها قيا ، وبعدها المضللة ، وفيها قرى متعددة ، وبعدها بسل ، وبعده ليّه ، ومنها إلى الشرق بلدة الطائف،

١- المصدر نفسه ١٤٩ .
٢ - زيادة من الباحث .
٣ - « تحفة القارىء والسامع » ٢١ ، انظر : « المفيد » لعمارة اليمن ١٠٠ . ١٠١ .
٤ - « كتابة السابق » مج٢ / ج٣ / ٦٠٤ .
٥ - «عمارة الحكمي ، كتابه السابق ٩٧ ، انظر :« تحفة الزمن في أخبار ملوك اليمن » للخزرجي ٣٦ .

وبعد ذلك الحيفر ، ثم المحرم ، والسيل ، ثم الزيمة ، وبعدها مكة »[1] ، ولقد تحدث عن هذه الطريق من قبل ابن المجاور في الربع الأول من القرن السابع الهجري فذكر مراحل الرحلة من الطائف إلى صعدة ، ووصف أعمال هذه الطريق ، وقال في شأن ذهبان : أهم مواقع السفر إلى الحجاز : « أما ذهبان فهي أمُّ القرى بلادُ عِزٍّ ، ويقال : إن دَور أعمالها أربعون فرسخاً »[2] .

ومما يذكر أثره في تيسير الوصول إلى هذه الجبال السروية ، ما تؤديه العِقَابُ الكثيرة المنتشرة عند منافذ هذا الطود المديد ، والتي انطوت على أهمية قصوى في تسهيل حركة الناس بهذه الأجزاء المجهولة من جزيرة العرب ، فعلى الرغم من كثرتها يمكن ذكر بعضها ، ممن ذكره الباحثون ، ووجدت في مصادر هذه البقعة ، من مثل : ضلع ، وتيه ، ورجم ، وحظوة ، والدهناء ، والقامة ، والعديف ، وعقبة ذي قين التي يقول فيها الموسوي المكي سنة ١١٤١هـ : « فأتينا على عقبة ذي قين ، وهي : عقبة مارأت مثلها في الطول عين ، صعبة السلوك جداً »[3] ، وليست هذه العقاب وحدها المعروفة في بلاد السراة وحسب ، وإنما هنالك غيرها ، ممن لم يدونه الدارسون ، ولم نحط به في هذا المقام وبخاصة العقاب السَّرْوية الأخرى المهمة : عامرها ، وموفيها ، ولقد أفاض كتاب : « تاريخ عسير في مذكرات سليمان الكمالي » لأحمد بن حسن النعمي في ذكر العديد منها ، وما يتصل فيها من تيسير لمرور حركة : الجيش ، والحج ، والتجارة ، ولعل أشهرها عقبة ضلع التي يقول فيها أحد المصادر أنها : « وادٍ كان طريقاً تجارية من القديم ، وكان مرصوفاً بالحجارة من أعلى الجبل آت من قرية المفتاحة التي كانت تصنع فيها السيْوف والرماح والمسكوكات »[4] .

وعندما يدقق الباحث في حقيقة الوضع الاجتماعي للأهلين في جبال السروات عبر هذه القرون الإسلامية الماضية يدرك سعة هذه الفترة وطول مرحلتها ، وأنه لا يستطيع درسها في غياب المصادر ، وشحها ، إذ لم تكن هذه البيئة معروفة للباحثين ، ولا موصولة بهممهم ، مما جعلهم يصدفون عنها ، وكأنها لم تكن شيئاً مذكوراً ، وتأتي ومضات محدودة من أخبار أولئك السَّرْويين متفرقة في بطون المصادر ، والآثار المخطوطة ، وهي على

---

١ - أحمد حسن النعمي ، كتابه السابق ٢١ .
٢ - كتابه السابق ٣٨ .
٣ - حمد الجاسر ، « نزهة الجليس ، ومنية الأديب الأنس » ، الفيصل ، ع٢٣٠ / س٢٠ (شعبان ١٤١٦هـ) ٣٦ .
٤ - أحمد بن حسن النعمي ، « كتابه السابق » ٢١ .

قلتها قد تفيد الباحث في بناء هذه الحياة المجهولة ، وعلى الرغم من سماع الكثير من الأخبار العلمية ، والتاريخية ، والاجتماعية ، إلا أنها تظل قاصرة محدودة لغياب المصدر الذي يفترض أنه يتحدث عنها ، إذ ليس من العدل العلمي ، أن يتهاون الباحث بالمصادر ، ولا من الإنصاف أيضاً أن يركن لما عداها ، ومن هنا وجب على الباحث الوعي بمسؤولية البحث العلمي في جميع شؤونه، وبخاصة في مثل هذه الأنحاء المنسية من جزيرة العرب .

يقول الهمداني مثلاً في معرض حديثه عن أبها : إن بها قبر ذي القرنين ، وأنه : « فيما يقال عُثر عليه على رأس ثلاثمائة من تاريخ الهجرة » [١] ، وحيث قال هذا المؤرخ : « فيما يقال »[٢] ، فمعنى هذا أنه ليس متأكداً من قوله ، بل هي رواية قيلت له ، أو سمعها، ومثل هذا العمل العلمي لا شك سيهبط بمنزلة الباحث ، ويثير حوله الشبهات في توثيق معلوماته ، وتمحيصها ، وحيث درج الباحثون في زماننا على اعتماد عامة تلك الكتب وقبولها ، فإن ما يأتي عن طريقها يجب تمحيصه ، ثم الاستئناس به والإفادة منه ، فلربما دل هذا الخبر على معلومات أخرى قد تسهم في بناء هذه الحياة العلمية المجهولة .

أقول : إن مثل هذا كثير عند الهمداني وغيره بما يدعو لاستجلاء هذه الأخبار في كتبه ودراستها ، إنه ليقول أيضاً : « والجبل الأسود وهو معظم بلد جنب ... وله أودية تهامية ، ونجدية ، منها جوف الخزَيميين ، وهو جوف مرزوق وعاش ثماناً [٣] وثلاثين ومائة سنة ، ولقيته ابن خمس وثلاثين ومائة »[٤] ، وهذا يدل أنه مات في حياة الهمداني الذي توفي عام ٣٣٤هـ ، وأن الهمداني قد زار بالفعل وادي الجوف بسراة عبيدة ، ولربما كان لاسم الجوف نصيب مما اشتهر فيه من المعمّرين ، إذ يعرف بجوف آل معمر . ولم تخل حياة الناس بجبال السّراة من أهلين حكماء ، حُفِظَتْ أَشعارهم بما تفيض به من الحكمة ، والفوائد من مثل : شخصية ابن دحمان في تنومة التي عرفت في القرون الأخيرة القريبة الماضية ، ولا زال الناس يحفظون حكمه وأمثاله حتى اليوم[٥] . وما قصته مع : علي بن أحمد بن أم زليل صاحب قنا والبحر بتهامة ببعيدة عن هذا القول ، إذ سُجل فيها مع صاحبه هذا موقفاً إنسانياً رفيعاً[٦] .

---

١ - كتابه السابق ١١٨ .
٢ - المصدر نفسه ١١٨ .
٣ - في الأصل ثمانية .
٤ - المصدر نفسه .
٥ - سجّل أخباره محمد بن ناشع في دوريته الأولية : « صوت الظهارة » ع٢ (١٣٩٦-١٣٩٧هـ) ١٠ .
٦ - لعل هذه القصة تأخذ طريقها للنشر في أحد أعداد كتاب « حوليات سوق حباشة » السنوي الذي يصدر عن مركز الدكتور عبد الله أبو داهش للبحث العلمي إن شاء الله تعالى .

المبحث

الرابع

ملامح حياتهم الدينية :

لم تكن أخبار الدعوة الإسلامية عند ظهورها في مكة المكرمة بخافية على أهل السراة لقرب اتصالهم بهذه البقعة المباركة ، حيث اعتاد السَّرْويون القدوم إلى الحجاز من أجل : التجارة ، والوفادة ، وتحقيق المصالح المختلفة ، وما أخبار الوافدين من الأزد وغيرهم بقليلة، بل هي وافرة معروفة ، من أمثال : ضماد بن ثعلبة الأزدي ، والطفيل بن عمرو الدوسي (...-١١ هـ) ، وأبي هريرة ، وغيرهم ، رضي الله عنهم أجمعين ، حيث أفضى حال هذا الاتصال الفكري إلى شيوع خبر الإسلام ونشأته في ربوع السروات ، فأقبل أهلوها إلى المدينة المنورة في وفودهم المشهورة المعروفة ، مسلمين مبايعين لرسول الله ﷺ ، وقابلين أمر دعوته، حيث دخلوا في دين الله أفواجاً .

وعند ئذ استقبلت طيبة الطيبة في نحو السنة العاشرة من الهجرة وفود أهل السراة ، من مثل : وفد الأزد ، وبارق ، وبني هلال بن عامر ، والرِّهاويين ، وزُبيد ، وسعد العشيرة، وسلامان ، وصُداء ، وجُرش ، ونجران [1] ، وغيرهم ، حيث وقر الإيمان في قلوبهم ، وعادوا إلى أوطانهم مبشرين بالحق ، داعين إلى الإسلام ، وانتظم هذا الدين في قبائل هذه الأنحاء من جزيرة العرب ، حتى إذا هب داعي الجهاد ، وأخذ الجيش الإسلامي يغشى بلاد الروم، وفارس ، والعالم بأسره ، أَخذ أبناء السَّراة ينضمون لوحدات هذا الجيش الفاتح ، وينتظمون فيه ، حيث أسهمو في فتح الأمصار ، واستقر ذكرهم في قلب التاريخ ، لا يُعْرَفون إلا بأسماء قبائلهم في أواخر أسمائهم ، حيث امتلأت بطون الكتب بأخبارهم ، وأفعالهم المشرفة الرفيعة .

ولم تعدم بلدان السراة يومئذ فوائد هذا الفتح ، ودواعي هذه الهجرة ، حيث انساب أبناؤها في تلك الأمصار ملبين داعي الجهاد ، ومحققين الرغبة في الهجرة ، وعند ئذ عاش السَّرويونَ في جبالهم حياة مستقرة لم تَفْقد أسباب تلك المظاهر السابقة ، فغشيهم شيء من آثار: العزلة ، والانقطاع بحكم : صعوبة تضاريس أرضهم ، وشموخها ، ولكنهم أبقوا في استقرارهم هذا على شيء من: وميض العلم ، وواجب الدين ، إذ عمروا ديارهم بالمساجد ، وصفاء العقيدة .

١ - انظر : « قبائل إقليم عسير في الجاهلية والإسلام » لعمر بن غرامة العمروي ١ / ٢٤٩-٢٦٧ .

ولقد عدد أحد الباحثين جملة من المساجد المعمورة في بلاد السراة قبل القرن الرابع الهجري ، وذكر تاريخ بنائها ، فقال : مسجد جُرش في عام ٨٠هـ ، ومسجد تمنية في ١٠٥هـ ، ومسجد صدر أيد ببني عمرو عام ١١٠هـ[١] ، ولقد رأيت في أحد جُدُر هذا المسجد سنة ١٣٩٩هـ حجراً أسود عليه كتابة ، قد يظنها بعض المجتهدين تاريخ بناء المسجد ، ولكن هذا الحجر أُحضر - فيما أظن - من خارج أرض المسجد ، وليس بذي صلة بتاريخ عمارته ، ولقد أضاف هذا الباحث إلى ذكر المساجد السابقة قوله ، ومنها : مسجد أهل ذبوب في بللسمر في ١٢٠هـ ، ومسجد السقا غربي أبها في عام ١٦٩هـ ، ومسجد المساح في عام ١٦٩هـ ، ومسجد أبها في عام ١٧٠هـ ، ومسجد ذهبان في عام ١٧٥هـ ، ومسجد الأعاسرة ببني عمرو في عام ١٩٠هـ ، ومسجد الحرجة في بلاد قحطان في عام ١٩١هـ ، ومسجد الحيفة ببيشة في عام ٢٠١هـ ، ومسجد الجهوة في عام ٢٥٠هـ[٢] .

ومن تلك المساجد المعروفة في جبال السراة التي أتى على ذكرها بعض الباحثين أيضاً : عامرها ، وموفيها : مسجد خالد بن الوليد رضي الله عنه بنجران ، والذي قيل حوله : «ويؤكد هذا الاعتقاد وجود مسجد الخالد [رضي الله عنه] [٣]في منطقة بلاد وادعة»[٤] وفيه يقول الرداعي في أرجوزته :

لمسجد الخالد مُقاربه ثويلة الأنجد فيها قاربه[٥]

ومنها مسجد المسقي الذي ذكره الهمداني بقوله : « والقرعا لشيبة من عنز ، ولهم قرية كبيرة ذات مسجد جامع ، يقال لها المسقي »[٦] ، وفي بني رزام : « مسجد السوق المعروف بالمسجد الجامع ببني رزام ... ويسود الاعتقاد أن عمره الزمني يقارب الثلاثمائة عام »[٧] ، وفي تنومة بني شهر عُرف مسجد السبت بقدم عمارته ، وروعة تشييده ، ولكنه مما يؤسف له هُدم ، وزيلت معالمه ، وكان بناء مسجد قرية عضاضة بعسير في عام ١١٩٥هـ[٨] ، وفي تهامة زهران عرف في هذه الفترة المسجد الجامع بالخلف[٩] ، وكان لأسرة آل مسبل ببللحمر مسجد يعرف بمسجد القضاة لازال قائماً حتى اليوم ، وكان

---

١ - عمر غرامة العمروي ، « كتابه السابق » ١ / ٢٧٥ ، ولقد اعتمد -مما يبدو- في ذلك على كتابي :« تاريخ عسير » للوصال البشري ، ٣٢،٣٣ ، و « عسير في مذكرات سليمان الكمالي » للنعمي ٤٨ .

٢ - المصدر نفسه ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

٣ - زيادة من الباحث .

٤ - محمد بن مهارش الوادعي ، « مواضع في منطقة ظهران الجنوب ، بلاد وادعة (٢) العرب ، ح٣،٤ ،س٢٨ ، (رمضان / شوال ١٤١٣هـ) ص٢١٠ .

٥ - الهمداني ، كتابه السابق ٢٥١ .

٦ - المصدر نفسه ١١٨ .

٧ - «بنو رزام ، « الأرض الإنسان السوق » .

٨ - محمد عبد الله آل زلفه ، « معرض وثائق تاريخ عسير » الغلاف .

٩ - « الخليف والخلف » ، المنتدى ، ع١ س١(١٤١٦هـ) ، نشر نادي الباحة الأدبي ص٢٩ .

القاضي ناصر بن أحمد بن مسبل يحكم في الرقاب ، وهو جالس على سطحه ، وعرف بهذه الأنحاء مسجدا : المصلى بجبل شدا الأعلى بتهامة زهران ، ومسجد جبل منعاء بتنومة بني شهر ، ولعل السبب في إنشاء هذين المسجدين وغيرهما يعود للعزلة التي منيت بها جبال السروات ، مما جعل جماعة من ساكنيها يميلون إلى التبتل ، وإقامة المساجد في رؤوس الجبال والأماكن البعيدة[1] .

وحينما نتتبع ملامح هذه الحياة الدينية لهؤلاء السَّرْويين نلحظ أن المصادر ضنينة بذلك ، قد لا تعين الباحث على معرفة شيء منها ، فلا يكاد يستبين معالمها ، ولولا توفيق الله تعالى ، ثم ما رصده الرحالة الذين زاروا الحجاز وبعض أحواز بلدان : تهامة ، والسراة لظل واقع الناس الاجتماعي والديني بعيداً عن استيعابهم ومعرفتهم ، وحيث أن السَّرْويين كانوا يفدون إلى مكة المكرمة من أجل : الحج ، والتجارة ونحوهما ، فإن أولئك الرحالة قد رصدوا طرفاً من حياتهم الدينية ، ومن أولئك الرحالة : ابن جُبير الذي قال عنهم في موسم حج عام (٥٧٩هـ) : « فلا تجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية ، فهم إذا طافوا بالكعبة المقدسة يتطارحون عليها تطارح البنين على الأم المشفقة لائذين بجوارها متعلِّقين بأستارها ، فحيثما علقت أيديهم منها تمزق لشدة اجتذابهم لها ، وانكبابهم عليها ، وفي أثناء ذلك تصدع ألسنتهم بأدعية تتصدع لها القلوب ، وتتفجر لها الأعين الجوامد فَتَصُوب ، فترى الناس حولهم باسطي أيديهم مؤمِّنين على أدعيتهم متلقنين لها من ألسنتهم على أنهم طول مقامهم لا يتمكن معهم طواف ، ولا يوجد سبيل إلى استلام الحجر »[2] .

وبمثل ذلك وصفهم ابن بطوطة ، فقال بأن : « لهم صدق نية ، وحسن اعتقاد ، وهم إذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها متعلقين باستارها داعين بأدعية تتصعّد لرقتها القلوب ، وتدمع العيون الجامدة ، فترى الناس حولهم باسطي أيديهم مؤمِّنين على أدعيتهم ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم ، ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك »[3] ، ولقد تنبه لأثرهم فيمن شاهدهم في عصرهم ، أو في معرفة أسلافهم : ابن بطوطة نفسه ، وابن جبير أيضاً فقالا : « وذُكر أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يتحرى وقت طوافهم ، ويدخل في جملتهم تبركاً بدُعائهم »[4] ، وأضاف ابن بطوطة إلى ذلك قوله : « وشأنهم عجيب كله ، وقد جاء في أثر : زاحموهم في الطواف فإن الرحمة تنصب

---

١ – عبد الله أبو داهش ، « أثر الدعوة » ٦٦ ، ٦٧ .

٢ – كتابه السابق ١١١ .

٣ – «كتابه السابق ١ / ٩٧.

٤ – كتابهما السابقان ١ / ٩٧ ، ١١١ .

عليهم صبّا »(١) ، وقال ابن جبير في شأن هؤلاء السَّرْويين أيضاً : « وعلى ما وصفنا من أحوالهم فهم أَهل اعتقاد للإيمان صحيح ، وذُكر أن النبي ﷺ ذكرهم وأثنى عليهم خيراً ، وقال : علّموهم الصلاة يعلّموكم الدعاء »(٢) ، وأضاف : ودعاءهم : « كثير التخشيع للنفوس »(٣) .

ولنا أن نتصور حال هؤلاء الحجّاج السَّرْويين في مظهرهم الإيماني الصادق يطوفون بالبيت العتيق شعثاً غُبراً ، عليهم ظواهر الخصاصة والفطرة ، تلوح في وجوههم دواعي الشقة ، وبُعد المزار ، في بساطة ويسر ، حتى إذا طافوا بذات السِّتار أجهشوا بالبكاء ، وتعالت أَصواتهم المؤمنة الصَّادقة ، هنالك تفيض مشاعر الحجيج معهم فيسعدون لرؤيتهم ، ويؤمّنون على داعائهم ، إنها صور إيمانية يظهرها الحرم المكي الشريف بقدسيته وطائفيه ، لك أن تشهد الحجيج في مرأى واحد وهم يشيرون بأصابعهم ، ويبصرون بأعينهم ليقولوا هؤلاء : عرب السراة بفطرتهم ، وصدق إيمانهم .

ويزيد ابن جبير في وصف حال هؤلاء الحجاج السَّرْويين ، فيقع من بعض خصوصياتهم على خصائص يحرصون عليها في طوافهم ، قد نشهد مثلها في زماننا ، ولكنها ليست بغريبة تدعو للعجب والتندر ، وإنما يوجبها واقع المكان وهيبته ، يقول ابن جبير : « وإذا فُتح الباب الكريم فهم الداخلون بسلام ، فنراهم في محاولة دخولهم يتسلسلون كأنهم بعض ببعض مرتبطون ، يتصل منهم على هذه الصفة الثلاثون والأربعون إلى أَزيد من ذلك ، والسلاسل منهم يتبع بعضهم بعضاً ، وربما انفصمت بواحد منهم ، يميل عن المطلع المبارك إلى البيت الكريم فيقع الكل لوقوعه ، فيشاهد الناظر لذلك مرأى يؤدي إلى الضحك »(٤) .

ويضيف ابن جبير إلى ذلك قوله : « وأمَّا صلاتهم فلم يُذكر في مضحكات الأعراب أظرف منها ، وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم فيسجدون دون ركوع ، وينقرون بالسجود نقراً ، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ، ومنهم من يسجد الثنيتين والثلاث والأربع ، ثم يرفعون رؤوسهم من الأرض قليلاً ، وأيديهم مبسوطة عليها ، ويلتفتون يميناً وشمالاً التفات المروّع ثم يسلمون ، أو يقومون دون تسليم ، ولا جلوس للتشهد ، وربما تكلموا في أثناء ذلك ، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه ، وصاح به ، ووصّاه بما شاء ، ثم عاد إلى سجوده إلى غير ذلك من أَحوالهم الغريبة »(٥) ، ولا يمكن تعميم هذا

---

١ - كتابه السابق ١ / ٩٧ .
٢ - كتابه السابق ١١٢ .
٣ - المصدر نفسه ١١٣ .
٤ - كتابه السابق ١١١ ، ١١٢ .
٥ - المصدر نفسه ١١٢ .

الوصف على بقية أهل السراة ، إذ الأمر لن يكون كذلك في جملته ، وإنما هذه شريحة قليلة اصطفاها الرّحالون في كتبهم لتكون سلوة للقارئ وبهجة .

ولقد أثارت هذه الأخبار الموجزة المتصلة بأحوال السَّرْويين شعور الأديب عبد القدوس الأنصاري (١٣٢٤-١٤٠٣هـ) أحد أدباء الحجاز ومفكريهم ، فألف كتاباً حول هذه الرحلة عنوانه : « مع ابن جبير في رحلته » ، وقال عند ئذ : « ونقول تعليقاً على ما سلف ذكره عن ابن جبير حول أوضاع السَّرْويين في عصره : لا جرم أن جل ذلك قد تغير وأصبح السَّرْويُّون على حال أحسن بكثير مما كانوا عليه قبلاً ، ولقد فُتحت المدارس العديدة في بلادهم في العهد السعودي الحاضر ، وصار منهم المثقفون والمتعلمون ، وصار منهم التجار الكبار ، والصناعيون ، وتغيرت أوضاع ملابسهم ، وأحوال عاداتهم إلى أحسن من ذي قبل ، وتثقف كثير منهم ، وانتظمت شؤون بلادهم ، وذُللت طرقها ، واتصلت بالمدن الأخرى بطرق معبدة مزفتة ، كما صار منهم موظفون كثيرون في دواوين الحكومة ، ومديرون عامون وخاصون ، وقد اتصلت الآن عاصمة منطقة عسير التي هي مركزهم من قديم الزمان : بنجد ، والحجاز ، وبجازان . وأما منطقة الباحة وهي من منازلهم أيضاً ، فقد اتصلت فعلاً بالمناطق المذكورة آنفاً ، ولكن شيئاً واحداً قد توارى عن الأنظار ألا وهو إتيانهم أو بعثهم بالميرة من حبوب منوعة ، وفواكه إلى مكة والطائف ، ولقد اختفت غرائر قمحهم المعروف بقمح الهميس من أسواق الطائف ومكة »[1] أيضاً .

ونلمح في كتابي : « صفة بلاد اليمن ، ومكة وبعض الحجاز » لابن المجاور (٥٤٠-٦١٤هـ) و : « سمط النجوم العوالي » للعصامي المكي (١٠٤٩-١١١١هـ) شيئاً من مظاهر الحياة الدينية في بلاد السراة ، يقول ابن المجاور في معرض حديثه عن الطائف : « وأهلها يرثون البنت عند الموت ، ولم يُورث أحدهم بنته الدّراهم ، وكذلك بنو هُذيل ومضر ، وبجيلة ، وجميع أهل السراة وجميع العرب الذين هم سكان بأرض الحجاز وما حول مكة »[2] ، وأضاف إلى ذلك قوله : « وللقوم عصبية عظيمة إذا مات بها أحد لم يحمل جنازته إلا الشبان ، ومع ذلك يقولون : سلم سلمك الله هذا ما وعد الله نعم القاضي ! وهم يتداولون بالنعش إلى الجبانة ، وهم الذين يحفرون القبر »[3] ، وقال العصامي في معرض حديثه عن بعض بلدان السّرو الشمالية إن أهالي : « سوق الخميس ، ويسمى زهران ، يتصل به : قرن ظبي ، والصّفا ، والمخواة ، وجبل عظيم يسمى ملس ، كان من شأن هذه المواضع أن سكانها لا يورثون النساء جملة كافة ، خصوصاً البنت التي

---

١ - « مع ابن جبير في رحلته » ٢٠٢ ، ٢٠٣ . ٢ - ٢٥ .
٣ - ٢٥ .

منعُها من أعظم سنن الجاهلية ، ومانعُوها هم الكفار شرعاً»[1]، وأضاف العصامي إلى ذلك قوله إن شريف الحجاز في نحو سنة (٩٨٢هـ) نصّب بهذه الأنحاء من بلاد السراة: «حاكماً شرعياً وأميراً ليقيم نظام السنة والجماعة فتمّ ذلك على الأوضاع الشرعية»[2]، ولكن أولئك الأهلين قتلوا من بعد ذلك هذين الحاكمين وهذا الحال يعكس تواضعاً في حياة الناس الدينية التي زاد في ضعفها حال هذه البيئة السروية ، وما تعيشة من ظروف قبلية ، وعزلة اجتماعية ، مما يجعل مؤلفات الحجازيين التاريخية والدينية خير من يتحدث عن هذه الأنحاء بحكم الاتصال السياسي ، وعلاقة السَّرْويين بالحجاز في شؤونهم : السياسية ، والتجارية ، والعلمية .

وتأتي أهمية : الوثائق ، والحوليات المحلية واضحة الفائدة فيما تضمنته من المعلومات المفيدة النافعة ، فهي وعاء مهم لتاريخ هذه الحياة الدينية بهذه الأنحاء ، فلقد دلت بعض الوثائق المخطوطة على أن أهل رجال ألمع بتهامة عسير عام ١١٥٩هـ / ١٧٤٦م قد : «جدّدوا العهد على إقامة الشريعة المحمدية ، وتعاهدوا بالله الذي لا إله إلا هو على تنفيذها ، والرضا بحكمها ، وهي الطريقة المحمودة ، ونصّبوا الفقيه هادي بن بكري على فصل الشريعة المطهرة »[3]، وأضاف كاتب هذه الوثيقة إلى قوله : « ونصّبوا الفقيه عبد القادر بن بكري ... راتب المسجد »[4] ، مما يشير إلى شيء من ملامح عمارة هذه الحياة الدينية المتواضعة بهذه الأنحاء من جزيرة العرب .

ولعل ما ساعد على هذا التكوين الديني ببلاد السراة وجود : الأسر العلمية ، والمكتبات الخاصة ، ووضوح الاتصال العلمي بينها وبين مراكز الفكر المجاورة ، مثل : الحرمين الشريفين ، ورجال ألمع ، والمخلاف السليماني ، واليمن ، إذ كانت تلك المراكز الفكرية ، وجهة علمية لطلبة العلم ، ومثابة للدارسين من شتى قبائل السراة ، إلى جانب أن الناس في هذه الأنحاء كانوا يشعرون بواجبات الشريعة الإسلامية ، ويدركون أهميتها ، فلقد نظمت قواعدهم القبلية شيئاً من تلك الواجبات . وكانت مساجدهم عامرة بالصلاة والذكر ، محترمة في أوقافها وخدماتها ، ويمكن أن يضاف إلى تلك الأسباب أثر الحاج اليمني والتهامي في إنعاش الحياة الدينية بالسراة . وذلك من خلال مرور أولئك الحجاج بتلك الأنحاء في موسم الحج ، إذ كان للعلماء منهم أثر ملموس في هذا الجانب ، وبخاصة في : أبها ، ورجال الحجر ، وخثعم وغيرها ، فلقد ذكر - على سبيل المثال - لطف الله جحاف أن حسين بن مهدي الكبسي رئيس الحاج اليمني اعتاد المرور بالقاضي مناع

---

١ - ٣٦٨ .
٢ - ٣٦٨ .
٣ - توجد هذه الوثيقة المخطوطة لدى الباحث .
٤ - المصدر نفسه .

الخثعمي ببلاد خثعم في غضون النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري ، وأن هذا القاضي الخثعمي رثى صديقه الكبسي لما بلغه موته[1] .

ولعل أهم ما يطالع الباحث في مصادر حياة هذه الأجزاء من جزيرة العرب واقع الناس المذهبي ، وما كانوا عليه من مذهب ديني مستقل ، فمن الواضح : أن أهل السراة : « منذ ظهور الإسلام إلى نهاية القرن الثاني الهجري يقومون بعبادة الله حسب ما شرع الله ورسوله عقيدتهم التوحيد الخالص النقي من الخرافات والبدع ، فلم يظهر فيهم مبتدع ولا متشيع ولا منحرف »[2] ، ومن بعد هذا العهد ساد المذهب الشافعي هذه الأنحاء لمرور صاحبه – رحمه الله – بهذه البلاد في طريقة إلى : نجران ، واليمن[3] .

ويؤكد هذا بعض المصادر التي دلت على شيء من ذلك ، يقول المحبي إن : « غالب أهل القطر الحجازي شافعيون »[4] ، وقد وافقه على ذلك صاحب كتاب : « المختصر من كتاب نشر النور والزهر » حينما وصف غالبية الحجازيين بأنهم على المذهب الشافعي [5]، ويؤكد هذا أيضاً قول محمود شاكر الذي ذكر أن أهالي عسير يلتقون مع الأهلين بتهامة في اتباعهم – كما قال – : « مذهب أهل السنة ، وكلاهما أيضا من الشوافعة »[6] ، ويقول يوسف العارف إن : « المجتمع العسيري بصفة عامة مجتمع مسلم متدين ، متمسك بدينه أشد التمسك ويتبع سكانه المذهب السني مذهب أهل السنة والجماعة على حسب المذهب الشافعي »[7] ، ومثله أحمد النعمي في قوله : « والعسيريون تابعون لمذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي »[8] ، وقال ستانلي لين بول : « والأهلون هنا [السراة] كلهم سنيون ومذهبهم شافعية »[9] ، وإلى ذلك ذهب حافظ وهبه حينما قال : بأن الأهلين بجبال السراة : « شافعيو المذهب »[10] ، وإلى مثل ذلك ذهب عبد الله عبد الجبار الذي أشار إلى سعة انتشار المذهب الشافعي ببلاد السراة[11] ، ولقد رصد هذا المعنى بدقة القاضي محمد بن أحمد الحفظي (١١٧٦-١٢٣٧هـ) فقال : « مع أن في نحو عشر

١ – « درر نحور الحور العين » ١١٠ .
٢ – عمر غرامة العمودي ، كتابه السابق ١ / ٢٧٣ .
٣ – المرجع نفسه ١ / ٢٧٣ .
٤ – « خلاصة الأثر » ٣ / ١٤٨ .
٥ – أبو الخير ٢ / ٣٠١ .
٦ – كتابه السابق ١٤٠ .
٧ – « أضواء على مذكرات سليمان شفيق كمالي باشا » ٦٢ .
٨ – كتابه السابق ٤٧ .
٩ – « الدول الإسلامية » ١ / ٢١٨ .
١٠ – « جزيرة العرب في القرن العشرين » ٣٤ .
١١ – « التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية » ١٢٥ .

مراحل من جهتنا لا يوجد مؤلف للحنابلة ما عدا الهدي النبوي لابن القيم - رحمه الله - فهو مما حصلناه لأنفسنا في هذه المدة ، وإنما هي كتب الشافعية ، وفي الجهة منها عدة عديدة ومتون وشروح مفيدة ، ومع ذلك بعض الأمهات الستة ونحوها من الأحاديث »[١] ، ولقد أكد شيوع المذهب الشافعي في هذه الانحاء أحد الباحثين المعاصرين فقال : « أما مذهب قبائل بني الحجر الفقهي فإلى عهد قريب كان المذهب الشافعي سائداً على وجه العموم ، ولقد أدركت أن بعض سكان تلك الربوع يقنت في صلاة الفجر ، وبعضهم حتى الوقت الحاضر يجهر بالبسملة في صلاته ، وهذا نص مذهب الإمام الشافعي - رحمه الله - »[٢] ، وقال أيضاً : ولعل شيوع هذا المذهب ببلاد السراة يعود إلى تولي الإمام الشافعي قضاء نجران في عهد الخليفة هارون الرشيد[٣] ، ولقد : «روى أبو نعيم بإسناده إلى الشافعي ، قال : وليت قضاء نجران ، وبها بنو الحارث ، وموالي ثقيف ، فنظروا إلى حكمٍ جارٍ فخرجوا إلى مكة ... »[٤] .

ويعرض ابن المجاور للحياة الدينية في نجران في الربع الأول من القرن السابع الهجري، فيقول : « وينقسم أهلها على ثلاث ملل : ثلث يهود ، وثلث نصارى ، وثلث مسلمين ، فالمسلمون الذين بها ينقسمون على ثلاثة مذاهب : ثلث شافعية ، وثلث زيدية ، وثلث مالكية »[٥] ، ويضيف إلى ذلك محمد بن أحمد العقيلي أنه عند زيارة ابن المجاور لنجران في هذه الأثناء : « يفهم منه أن في نجران جماعة من الإسماعيلية »[٦] ، ويؤكد ذلك أحمد بن الحسن النعمي بقوله : « وقبائل يام تدين بالمذهب الإسماعيلي ، وهو من المذاهب الباطنية »[٧] ، وأقول : إن وجود هذا الاتجاه الديني في نجران قد شكل سداً منيعاً تجاه انتشار المذهب الزيدي في بلدان السراة المجاورة ، وبخاصة أن الباطنيين : « على طرفي نقيض مع الزيدية »[٨] ، وعلى الرغم من كثرة المصادر التي تحدثت عن الإسماعيلية الباطنية في نجران تظل بعيدة كل البعد عن معرفة حقيقة هذا الاتجاه الديني الخطير ، وإن أتى أولئك الباحثون بشيء عنه ، فإنه يظل في جانب العموميات المعروفة في المذهب الإسماعيلي نفسه دون العلم بخصوصية بعض فئات المجتمع النجراني الباطني ، ولعل

١ - « اللجام المكين والزمام المتين » ، تحقيق عبد الله أبو داهش ٣ .
٢ - سعيد بن عوض الأسمري ، كتابه السابق ١٥٨ ، ويؤكد هذا المعنى قول شاعرهم الشعبي : « والمذاهب ودين الشافعي حل وادي غالبه » .
٣ - المرجع نفسه ١٥٨ .
٤ - «عمر بن علي بن سمرة الجعدي ، طبقات فقهاء اليمن » تحقيق فؤاد سيد ١٣٨ .
٥ - كتابه السابق ٢٠٩ .
٦ - نجران ١٢٣ .
٧ - كتابه السابق ٢٥٠ .
٨ - كتابه السابق ٢٥٠ .

السبب في ذلك يعود إلى التكتم الشديد الذي يحاط به هذا المنحى الفكري ، وأن أهله يحرصون كل الحرص على سرّيته وكتمانه ، ومع ذلك نلمح شيئاً من مبادئه في قول مقبل بن عبد العزيز الذكير ، إذ يقول بأن : « الدين الغالب في نجران : الإسلام ومذهبهم باطنية إسماعيلية ، ويتبعون في مجموعهم إرشاد رئيسهم الروحي ، ويسمى عندهم الداعي ، وهو في الغالب من المكارمة ، ويكون في بعض الأحيان من سواهم كما هو الحال في الوقت الحاضر ، فإن الداعي : علي بن محسن من شبام ، ومنصوبه الذي يخلفه في الزعامة الدينية هندي ، ومنصوب الاثنين مكرمي ، ومركز الدعاية الدينية في بلدتي : العان ، وبدر ، وقد تكون في : هدادي ، أو خشيوي ، وسهله ، ولأهل نجران مقام لدى إسماعيلية الهند : البهرة ، لا يعادله مقام ، ويحترمونهم احتراماً بالغاً حد التقديس »[1] .

ومن الواضح أن مذهب الأهلين برجال ألمع قبل ظهور الاتجاه السلفي الإصلاحي في بلادهم أواخر القرن الثاني عشر الهجري هو المذهب الشافعي شأن جيرانهم في بلدان تهامة ، فقد أشار محمد بن أحمد الحفظي إلى شيوع كتب الشافعية في بلادهم[2] ، بالإضافة إلى حرص علماء رجال ألمع أنفسهم على ذكر لفظ الشافعي[3] عند كتابة أسمائهم ، ومع ذلك وجدت في رجال ألمع بعض ملامح الاتجاهات الدينية المختلفة من : تشيع ، وتصوف ونحوهما ، فقد وصف عبد الرحمن بن سليمان الأهدل (...-١٢٩٠هـ) الشيخ أحمد بن عبد القادر الحفظي بأنه : «شيعي أهل البيت النبوي المنهمك في حبهم وموالاتهم »[4] ، كما وصفه الحسن بن أحمد عاكش (١٢٢١-١٢٩٠هـ) بأنه : «إمام الزاهدين ، ورأس أهل التصوف الحقيقي»[5] ، ولذلك صاحب هذه المناحي الفكرية الدينية برجال ألمع شيء من الشطحات الدينية ، فقد أشار محمد حسن غريب إلى أنه كان بتلك الأنحاء قبيل ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيها قبر لأحد الأولياء يُعرف بقبر الولي ، كان الناس يعتقدون فيه ويقدسونه[6] ، وإذا صح هذا فإن رجال ألمع عند ئذ لم تسلم حينذاك مما أصيبت به معظم بلدان الجزيرة العربية من رزء في دينها .

كذلك كان من أبرز المعتقدات الباطلة بهذه الأنحاء تقديس الناس بزهران وما حولها لصنم ذي الخلصة ، وشجرة العبلاء ، إذ كان أولئك الناس يتمسحون بهما ، وينحرون

---

١ - « العقد الممتاز في أخبار تهامة والحجاز » ٢٠ .
٢ - كتابه السابق ٣ .
٣ - مثل قولهم : قال الشيخ أحمد بن عبد القادر الحفظي الشافعي ، انظر : « أبجد العلوم » للقنوجي ١٩١ .
٤ - « النفس اليماني » ٧٩ .
٥ - « عقود الدرر في تراجم علماء القرن الثالث عشر » مخطوطة ورقة ١٧ .
٦ - « حول نفحات من عسير » مجلة المنهل ، ع٨ ، س٤١ ، مج٣٦ (شعبان ١٣٩٥هـ)٦١٣ .

عندهما ، ويهدون لهما أنفس المتاع[1] ، وربما كانوا يطوفون بصنم ذي الخلصة كما ذكر المؤرخ عثمان بن بشر حينما تنبه لقول رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة »[2] ، ولقد اندفع هذا الواقع المؤلم في عهد الدولة السعودية الأولى ، ثم في عهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله تعالى.

وحقيقة الأمر أن الناس في بلاد السراة عبر هذه الفترة سنيون ، وأنهم لم يعرفوا شيئاً من تلك الاتجاهات المذهبية المعروفة في بعض البلدان المجاورة ، وأنهم شافعيو المذهب لما وجد من الإشارات التاريخية التي يمكن أن تعين الباحث على تحديد هذا المذهب ، من مثل : ورود لفظ الشافعي في أسماء الفقهاء، وطلبة العلم ببلاد السراة ، وشيوع كتب الشافعية المخطوطة بينهم ، إلى جانب وضوح صلتهم الفكرية بعلماء تهامة الشوافع ، ومن الإشارات المذهبية الأخرى الواردة في الكتب المخطوطة بالمكتبات الخاصة بجبال السّراة قول أحدهم : « ... وكان تحصيله بعناية أخينا وحبيبنا في الله العزيز فيه جاري بن ظافر ... والخط بيد من اعتدل خوفه ورجاه راجي عفوه مسفر بن مانع الأحمري بقرية ابن مزرعي وطنا والشافعي مذهباً »[3] ، كما وجد في مخطوط أخر هذا القول : « بعناية الأخ مسفر حسن الأسمري بلداً الشافعي مذهباً » [4] ، ويزيد في إيضاح شيوع هذا المذهب بهذه الأنحاء ورود هذه العبارات : « تمت القراءة في منهاج الطالبين وعمدة المتقين »[5] ، بالإضافة إلى هذا القول : « تم الثلث من تفسير ... للإمام العلامة الفهامة البغوي رحمه الله »[6] ، وهذه الإشارات التاريخية مجتمعة تؤكد انتشار المذهب الشافعي بين الناس في بلاد السراة عبر القرون الإسلامية الوسيطة الماضية .

وعلى الرغم من وجود شيء من الشطحات الدينية ، والاتجاهات المذهبية الأخرى في بعض بلدان السراة ، وبخاصة تهامتها فإن أهليها بوجه عام عبر تاريخ بلادهم الديني : «يوحدون الله ، ولا يتوسلون إلى سواه »[7] ، وأن مساجدهم : « قد خلت من الزخرف ، وقبورهم ، لا قباب فوقها »[8] ، يقول أحد الباحثين : أما القبور : « فإنه لم يكن على مدار

---

١ - أبو الوليد محمد الأزرقي ، « أخبار مكة » تحقيق رشدي ملحس ١ / هـ ص ٣٨١ ، ٣٨٢ .
٢ - حديث صحيح أخرجه :أحمد ،والبخاري ،ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، انظر جامع الأصول ١٠ / ٣٩٣ ،٣٩٤ .
٣ - كتاب السيرة للعامري ، مخطوط .
٤ - كتاب الزبد ، مخطوط .
٥ - كتاب منهاج الطالبين للنووي ، مخطوط .
٦ - تفسير البغوي ، مخطوط .
٧ - أمين الريحاني ، « تاريخ نجد وملحقاته » ٢٩٨ .
٨ - المرجع نفسه ٢٩٨

تاريخ المنطقة »[1] ، وما برز فيها من شخصيات سياسية وعلمية أن : وجد « قبر لأحد من رجالات عسير على كثرتهم وشهرتهم ... أنه قبر الأمير فلان أو العالم فلان ، وهذا من ميزة أبناء هذه المنطقة وإدراكهم لمفاهيم الإسلام ، وهم شديدو النفور من البدع »[2] ، وهذا ما أكده سليمان شفيق كمالي في مذكراته إبان ولايته لمنطقة عسير في الثلث الأول من القرن الرابع عشر الهجري [3].

---

١ - أحمد حسن النعمي ، كتابه السابق ٤٨ ، ٤٩ .

٢ - المصدر نفسه ٤٩ .

٣ - « بلاد العرب » ، مجلة العرب ج١٠ (ربيع الثاني ١٣٩١هـ) ٩٠٩ .

المبحث
الخامس

ملامح حياتهم العلمية :

يجد الباحث تفاوتاً في حركة الفكر ببلدان السراة عبر هذه الفترة المحددة للدرس ، فحينما نقيس تلك الحياة العلمية الشاملة لتلك البلدان في القرن الرابع الهجري ببقية القرون الوسيطة اللاحقة الأخرى نجد ذلك الاختلاف ، فالهمداني في كتابه : « صفة جزيرة العرب » يكاد يقف بشيء من الوضوح تجاه حياة نابهة ذات عطاء علمي وأدبي مناسب ، مما يجعلنا لا نجد شيئاً كبيراً من ذلك في القرون اللاحقة الأخرى ، حيث تفتقر تلك الحياة ، لعدم وجود مصادر مستقلة مهمة ، وإن وجد شيء منها فإنما هي وجادات متناثرة في بطون تلك الكتب القليلة المحدودة .

وعند ئذ يبرز رأيان أحدهما : يتمثل في القول بكثرة الرّحلة خارج هذه البيئة السَّرْوية ، مما أثَّر على البناء الفكري المحلي ، والثاني يتمخض عن الظن بوجود بعض الكوارث التي منيت بها بعض البلدان السَّرْوية ، مما أكسب هذه الحياة ضعفاً وفتوراً ، وليس ما أورده ابن كثير عام (٥٩٨هـ) بقليل في حُسْبان ذاك الدمار الشامل ، مما يظن بأنه أثر على نشأة هذه الحياة العلمية النامية ، وقضى على ذاك الانتعاش بما أضعفه في واقعه عن نشأته الزاهرة في القرون الأولى .

وأعود فأقول : إنَّ هذا الظن المفترض لا يُلغي وجود بعض الومضات العلمية في القرون الأخيرة الماضية ، حيث إنَّ الله تعالى قد حفظ دينه ، وأبقى على جذوة هذه الحياة العلمية ، يقول تعالى : ﴿ إنَّا نحنُ نزّلنْاَ الذّكرَ وإنَا لَهُ لحافظُون ﴾[١] ، وهذا ما اتسق فيه تاريخ النمو الفكري والأدبي عبر هذه القرون الأخيرة بما هو مشهود في ذكر حياتها العلمية المتصلة ، إذ لا يمكن القول بانعدامها وتلاشيها ، فالأسر العلمية الكثيرة التي عرفناها في العصر الحديث لم تأت من فراغ ، بل هي في ظني متصلة النشأة بحياة علمية سابقة ، إلى جانب وفرة المصاحف القرآنية المخطوطة المحفوظة في المكتبات الخاصة ، أو الموقوفة في المساجد[٢] ، ناهيك عن انتشار كتب الشافعية المخطوطة وكثرتها ، وكذلك الخطب المخطوطة المتوارثة .

---

١ - « سورة الحجر » آية ٩ .

٢ - يقول اليافعي : « وفي المسجد ختمة موقوفة » مرآة الجنان ٣ / ٢٤٣ .

وفي ظني أن وجود مراكز آهلة بالحركة العلمية في الحجاز ، واليمن ، والمخلاف السليماني ، وحلي ابن يعقوب ، والبرك قد ساعد على صرف همم الدارسين نحوها ، فتهامة عند ئذ تحتضن أسباب الانتعاش العلمي ، لما توافر لها من دواعي اليقظة ، وبخاصة المراكز الفكرية القوية ، والطرق التجارية العامرة ، والأسر العلمية العريقة ، كل ذلك : أفضى إلى هذا النمو العلمي ، وهو مالم يتوافر للسَّرْويين في جبالهم : لصعوبة أرضهم ، وعزلتهم ، وقصور همم بعضهم تجاه الرحلة ، والتحصيل العلمي ، إذ انكفأ أغلبهم على مظاهر حياتهم التجارية والزراعية .

ومن الواضح أنّ رجالاً من السَّرْويين قد نزحوا من ديارهم من أجل : طلب العلم ، أو التجارة ، وبخاصة قِبَل : الحجاز ، أو تهامة ، إذ أفاض مؤرخو مكة في هذا الجانب ، وذكروه في كتبهم ، وليس أدلّ عليه من كثرة تلك الأسماء وشهرتها بالانتساب إلى قبائلها ، إذ ربما كان الداعي لتلك الرحلات : الرغبة في المجاورة لبيت الله تعالى ، أو أداء مناسك : الحج ، والعمرة ، فلقد أفاض - على سبيل المثال - الفاسي في كتابه : « العقد الثمين » ، في ذكر رجالٍ من السَّرْويين الذين عرفهم بمكة المكرمة ، أو سمع بوفياتهم ، حيث تعودَ في أغلب الأحيان تسجيل أسمائهم في كتابه ، أو الترجمة لهم من واقع شواهد قبورهم المرفوعة على أضرحتهم في مقابر مكة المكرمة ، وبخاصة : مقبرة المعلاة .

وعلى الرغم من عموميات تلك المختصارات التي كان يعتمد عليها الفاسي في ذكر وفياته لم تكن بمعدومة الفائدة من حيث : ذكر الأسماء ، والثناء عليها ، إذ يبدو أن أصحابها قد حرصوا على دفن رفاتهم فيها ، ولولا ذكر قبائل أولئك الهالكّين في أواخر أسمائهم ، لما استطعنا الوقوف عند تلك الأسماء ومعرفتها ، ولا شك أن هذه الوجادات المتفرقة قد تبني معالم هذه الحياة العلمية التي نحن بصددها .

ومما يجب التنبيه إليه ضرورة الوعي بأنه ليس من الإنصاف التكلف في الحقائق ، وتغيير وجهتها ، حيث نجد رجالاً ممن كتبوا عن تراث هذه المنطقة يبالغون بحيث يجعلون مَنْ كان يُذكر في اسمه نَسَبه لإحدى قبائل السراة ، وهو مقيم في أحد الأمصار خارج الجزيرة العربية ، أنه من علمائها ، كأن يجعل مَنْ ورد في اسمه لفظ : الأزدي ، أو الحجري ، أو المذجحي من : فقهاء هذه الجبال أو أدبائها ، ولقد وصل الأمر ببعض أولئك المحسنين إلى جعل : الإمام البخاري ، والشاعر المتنبي من رجالات هذه البيئة الجبلية السَّرْوية ، وهذا غير ممكن ، بل هو مداعية للتندر والسخرية ، وليس بغريب أن يوجد مثل ذلك ، فقد رحل القوم بأهليهم أو بشخوصهم إلى تلك الأمصار واستقروا فيها ، ولم يلتفتوا لسواها

فكانت ثقافتهم من ثقافة تلك البلاد التي سكنوها .

ولقد عُرف ببلاد السراة عدد من المراكز الفكرية التي يظن بحضورها العلمي ، وإسهامها الثقافي ، في أوقات متفاوتة من تاريخ هذه البيئات الحضري ، ولعل هذه اليقظة المناسبة التي عُرفت بها المواطن الثقافية قد أتت من توافر أسباب الانتعاش فيها ، وبخاصة : الظروف السياسية ، والاجتماعية ، وما تحققه طرق التجارة ، والحج من أثر فيها ، إذ أسهمت تلك الأسباب مجتمعة في بناء هذه الحياة العلمية المتواضعة ، ولعلّ من أظهر بيئات العلم بهذه البلاد في تلك الفترة : بلدة الحرجة التي وصفها أَحد الباحثين بقوله : «هي بلدة من بلدان شريف ، وكانت فيها قلعة لبني رسول اسمها القاهرة ، وقد دمرها العسيريون أثناء صدامهم مع قوات بني رسول في النصف الثاني من القرن السابع»[1] الهجري ، وقال أيضاً باحث آخر بأنها تعد : « قصبة منطقة قحطان في الماضي ... وهي مدينة عريقة لها تاريخ حافل بأهل العلم ، وبرز منها عدة مؤرخين »[2] ، ولعل من أشهر علمائها المقداد الحرجي صاحب كتاب : « النجوم اللوامع من مختصر التواريخ الجوامع » ، « وهو من رجال القرن السابع الهجري »[3] ، والسيد علي بن صلاح بن محمد العبالي (...-١٠١٩هـ) الذي يعد : أصله من الحرجة ، وغاية القول إنّ بلدة الحرجة توصف في كتب المؤرخين بأنها : القرية الواقعة : « ما بين الحجاز وصعدة »[4] .

ومما يستحسن ذكره في بناء هذه الحياة العلمية في القرن التاسع الهجري ما أورده القاضي محمد بن علي الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠هـ) في كتابه : « البدر الطالع » في معرض حديثه عن أَحد الرجال الصالحين ساكني بلدة الْحُمْرَة إحدى أحواز هذه البلدة ، إذ قال بأنها : وقعتْ : « قصة عجيبة ونكتة غريبة في بلد شامي الحرجة تسمى الحمرة ، وذلك أنه كان فيها رجل من الزَّرعة ، وكان ذا دين وصدقة ، فاتفق أنه بنى مسجدا يُصلي فيه ، وجعل يأتي ذلك المسجد كل ليلة بالسّراج وبعشائه فإن وجد في المسجد مَنْ يتصدق عليه أعطاه ذلك العشاء ، وإلا أكله وصلّى صلاته ، واستمر على ذلك الحال ، ثم أنها اتفقت شدة ونضب ماء الآبار ، وكانت له بير ، فلما قل ماؤها أخذ يحتفرها هو وأولاده ، فخربت تلك البير والرجل في أسفلها خراباً عظيماً حتى أنه سقط ما حولها من الأرض إليها فأيس منه أولاده ، ولم يحفروا له ، وقالوا : قد صار هذا قبره ، وكان ذلك الرجل

---

١ - شعيب الدوسري ، « امتاع السامر » ٥٠ .
٢ - أحمد بن حسن النعمي ، « كتابه السابق » ١٤٥ .
٣ - المصدر نفسه ١٥ .
٤ - محمد بن علي الشوكاني ، « البدر الطالع » ١ / ٤٥٧ .

عند خراب البئر في كهف فيها فوقعت إلى بابه خشبة منعت الحجارة من أن تصيبه فأقام في ظلمة عظيمة ، ثم أنه بعد ذلك جاءه السّراج الذي كان يحمله إلى المسجد ، وذلك الطعام الذي كان يحمله كل ليلة ، وكان به يفرق بين الليل والنهار ، واستمرّ ذلك مدة ست سنين والرجل مقيم في ذلك المكان على تلك الحال ، ثم أنه بدا لأولاده أن يحفروا البئر لإعادة عمارتها فحفروها حتى انتهوا إلى أسفلها ، فوجدوا أباهم حياً فسألوه عن حاله ، فقال لهم : ذلك السِّراج والطعام الذي كنت أحمل إلى المسجد يأتيني على ما كنت أحمله تلك المدة فعجبوا من ذلك »[1] ، وهذه الحادثة تدل على قدرة الله سبحانه أولاً ، ثم فضل هذا الصالح ، وما يفيض به عمله الخيري المنتظم لحياته من فضل وقيمة ، وهو ما يرفع من شأن هذه البلدة ، وأحوازها ، إذ أضحت هذه القصة - كما يقول الشوكاني - ميداناً لحديث الناس في أسواقهم، وأماكن تجمعهم .

ومن مراكز العلم ببلاد السراة : مدينة جُرش التي أتى على ذكرها الحسن بن أحمد الهمْداني ، حيث قال : « جرش هي كورة نجد العليا ، وهي من ديار عَنْز ، ويسكنها ويترأس فيها العواسج من أشراف حمير ... وفي شقّ قرية جرش فِرق من النزارية »[2] ، وأضاف إلى ذلك قوله : « وجرش في قاع ، ولها أشراف غربية بعيدة منها »[3] ، ووصفها أيضاً بأنها : قصبة ، وأنها رأس وادي بيشة[4] ، وقيل في أحد المراجع الحديثة التي كتبت عن مدينة جُرش إنها : « ذات تاريخ عريق ، ومن أَحد المراكز الحضارية التي تمثل حضارة جنوب الجزيرة العربية »[5] ، وأنها كانت قائمة في القرن الرابع الهجري ، واستمرت شهرتها : « حتى القرن الخامس الهجري ، حيث اختفى ذكرها بعد ذلك »[6] ، مما يدل على قيامها في هذا القرن الهجري نفسه ، وحيث إن مدينة جرش بيئة : زراعية ، وصناعية ، فإنه من المحتمل أن تكون هجرة علمية بحكم سيادتها ، ووقوعها على : « طرق الحج والتجارة من مكة إلى عدن »[7] .

وتعد قرية ذَهْبان من المراكز العلمية الحضرية في بلاد السراة ، نظراً لأهمية موقعها ،

---

١ - المصدر نفسه ١ / ٤٩٢ .

٢ - كتابه السابق ١١٧ .

٣ - المصدر نفسه ١١٨ .

٤ - المصدر نفسه ١١٨ .

٥ - محمد أحمد معبر ، « مدينة جُرش » ١٣ .

٦ - المرجع نفسه ١٤ ، وقد قيل في هذا المرجع : « تقع جُرش ضمن حدود بلدية مدينة أحد رفيدة في جهة الشمال منها، بينها وبين جبل حمومة ما يقارب من ٧٠٠ متر ، ويفصل بينها وبين وادي بيشة ، وتبعد عن مدينة خميس مشيط خمسة عشر [كيلاً] إلى الجنوب عن طريق نجران » ١٧ .

٧ - المرجع نفسه ٤٣ .

ولأنها ملتقى لطريق الحج الرئيس ، ولقد أتى على ذكرها ابن المجاور في الربع الأول من القرن السابع الهجري ، حيث وصفها بأنها : « أُمُّ القُرى بلادُ عزٍّ »[1] ، وأنها : « قليلة الجبال مستوية البقاع »[2] ، وهي ملتقى طريق الحج من : الطائف إلى صعدة ، وبها تمر طرقه ، وتقاس مراحله ، يقول ابن المجاور أيضاً : « وإلى بلاد قحطان أربع فراسخ ، وإلى راحة بني شريف فرسخين وادٍ فيه وُضعت مدينة البصرة ، وتسمّى درب العقيق »[3] ، وبذهبان سوق : « استمرت إلى نهاية القرن السابع الهجري »[4] ، وهي بلدة تاريخية معروفة وصفها الحجري بأنها : « بلدة في عسير على طريق الحاج »[5] ، قال كُثَيِّر :

وأعْرَضَ مِنْ ذَهْبانَ مغرَوْرِق الذرى ... تَرَبّعَ منه بالنِّطَاف الحواجِرُ[6]

وحيث وصف الهمداني مدينة الجهوة برجال الحجر بأنها : « مدينة السراة أكبر من جُرش »[7] ، فإنها لابد أن تنطوي على شيء من أسباب اليقظة العلمية المفترض ملازمتها لنمو الحياة الفكرية عند ئذ ، وتؤكد المصادر على أن تاريخ زوال حضارتها كان في عام ٩١٨هـ[8] ، وهذا يدل على أنها انتظمت هذه القرون الوسيطة منذ القرن الرابع الهجري وحتى الربع الأول من القرن العاشر الهجري[9] بما تقتضيه عمارة هذا المركز العلمي من المقامات العلمية المفترضة في مثل هذا المركز التاريخي المشهور .

وتأتي بلدة : رُجَال ببلاد رجال ألمع من المراكز العلمية المعروفة بهذه الأنحاء : إذ قيل بأنه : « جاء ذكرها في القرن الخامس [الهجري] ...[10]» وأنها « كانت تنافس مدينة : حلي ، ومدينة محائل »[11] بتهامة ، ولقد ازدادت هذه البلدة من بعد تلك الفترة نمواً فكرياً ظاهراً يتمثل في وفادة الشيخ : موسى بن جعثم من بيت الفقيه بتهامة اليمن إلى رجال ألمع سنة (١٠٠١هـ) ، حيث انتعشت هذه الحياة العلمية في هذه الفترة ، مما دلّل على يقظتها الفكرية المزدهرة التي تمثلت في : وجود العلماء ، والشعراء ، ووفرة أسباب

١ - كتابه السابق ٣٨ .
٢ - المصدر نفسه ٣٨ .
٣ - المصدر نفسه ٣٨ .
٤ - أحمد حسن النعمي ، كتابه السابق ١٥٥ .
٥ - كتابه السابق مج١ / ج٢ / ٣٥١ .
٦ - الهمداني ، كتابه السابق ٢٢٨ .
٧ - كتابه السابق ١٢٢ .
٨ - أحمد حسن النعمي ، كتابه السابق ٢١٦ .
٩ - الوصال البشري ، كتابه السابق هـ ص ٣٢ .
١٠ - المرجع نفسه هـ ص ٣٢ .
١١ - المرجع نفسه هـ ص ٣٢ .

التأليف، والاتصال الفكري المعهود[1] ، وذلك كله جعل من هذه البلدة مركزاً فكرياً معتبراً .

وتعد قريتا الخَليف والخُلف من المراكز العلمية المهمة بهذه الأنحاء ، إذ تقعان في تهامة زهران و : « على بعد خمسة أكيال في الشمال الغربي من (بلدة قلوة) تقع قرية الخليف ، أما الخُلف فهي إلى الشمال مع ميل قليل إلى الغرب من هذه البلدة بمسافة ثلاثة أكيال تقريباً »[2] وفيهما نقوش أثرية تدل على حضارة فكرية زاهرة ، وبخاصة في هذه القرون الإسلامية الوسيطة ، ففي قرية الخُلف على وجه الخصوص ، عُرف مسجدها الجامع الشهير ، ومن أشهر علمائها : الشيخ أبو محمد موسى بن عيسى الزهراني الخالدي (...-٩٢٩هـ) الذي رثاه أحد الشعراء بقوله :

قد أظلم الجو بعد الضوء والسُّدف   بموت موسى بن عيسى صاحب الخُلف[3]

وفي سنة (١١٤١هـ) زار الموسوي المكي قرية الخَليف ، إذ قال : بأنه أتى قرية الخليف ، وسمّاها قرية الشيخ الولي إبراهيم الخليفي ، ووصف قبره وذكر أولاده واصفاً إياهم بأنهم: أهل همم ، وسماح ، ووقار وصلاح »[4] .

ويضاف إلى هذه المراكز العلمية الحضرية ببلاد السراة وتهامتها المواضع الآتية : محايل التي : « اشتهرت بعد أن تحول إليها طريق حلي التجاري »[5] في هذه الفترة ، ومثلها : «بلدة الحيفة التي كانت حاضرة قبائل بيشة »[6] في نحو سنة ٧٨٥هـ[7]، ومثلهما الرهوة التي كانت تعد قصبة تمنية بشعف شهران في القرون الأخيرة الماضية[8]، وكانت ناحية : « رغدان مركز قضاء غامد »[9] ، وبخاصة مع تسيير مرور المحمل اليمني[10] في القرون القريبة الماضية .

---

١ - انظر أثر الدعوة للباحث .

٢ - مجهول ، « الخليف والخلف » ، المنتدى ، ع٤ ، س١ (دورية نصف سنوية تصدر عن نادي الباحة الأدبي ١٤١٦هـ) ٣٠ .

٣ - المصدر نفسه ٣٠-٣٤ ، وقد شفع معه كاتبه نقوشاً ظاهرة ، وصوراً حديثة لمظاهر آثار هاتين القريتين ، وبخاصة مسجد الخُلف ، انظر البحث نفسه من ص ٣٥ إلى ص ٣٩ .

٤ - حمد الجاسر ، « مع الموسوي المكي في رحلته ٨ » ، الفيصل ، ع٢٣٠ ، س٢٠ (شعبان ١٤١٦هـ) ٣٦ .

٥ - أحمدحس النعمي كتابه السابق ١٩٧ .

٦ - شعيب الدوسري ، كتابه السابق ٣٣ .

٧ - المصدر نفسه ٣٣ .

٨ - أحمد حسن النعمي ، كتابه السابق ١٩٨ .

٩ - الحجري ، كتابه السابق مج١ / ج٢ / ٣٦٩ .

١٠ - يبدو أن المحمل اليمني كان يمر من هنا ، قيل في المصدر السابق نفسه « وأما محمل الجبال فيمرون من المجزعة إلى الحمراء ما بين بني الأسمر وبني الأحمر ... ثم المضافة ثم ساق الغراب ثم تنومة ثم النماص من بلاد بني شهر ، ثم غامد إلى رغدان » مج٣ / ج٢ / ٦٠٤ .

ولم تخل بلدان السراة عبر هذه الفترة من ومضات فكرية مناسبة ، إذ عُرفت الأسر العلمية ، وبعض المظاهر التعليمية . وكان الناس في جبال السراة يدركون شيئاً من واجبات الشريعة الإسلامية التي تنظم حياتهم الاجتماعية . وذلك يتضح فيما وُجد من وثائق قديمة ، إلى جانب أنهم « كانوا يستحسنون كتابة شيء من ايات القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف في مساجدهم ، وأنهم كانوا يعمرونها بالصلاة » [1]والذكر .

أما الأسر العلمية التي وجدت في بلاد السراة عبر هذه الفترة ، فمنها : أسرة القضاة بالحرجة ، وأسرة الأشراف بأحد رفيدة بقحطان ، وأسرة الفقهاء بعبس ، وأسرة آل الجدي بخثعم ، وأسرة الفقهاء ، وآل هباد بغامد ، وأسرة آل مسبل وآل دعيم ببلحمر ، وأسرة آل فهامة بمحائل ، وأسرة آل موسى ، وأسرة آل سويد في سنجان ، وأسرة آل الحفظي برجال ألمع ، وأسرة آل الزميلي بشوحط ببني مالك في عسير ، وأسرة الفقهاء بوادي الصدر ، والخليف بزهران ، وأسرة آل ناشع بسدوان بللسمر[2] .

أما أسرة القضاة فقد ورد ذكرها في إحدى الوثائق المؤرخة : « في شهر صفر سنة ثمان وتسعمائة» [3] للهجرة ، وفيها يقول كاتبها : « إنه لما كان أخر الزمان كثرت الخصم والامتحان ، وكانت بلاد قحطان عارية من المسلمين ، ومن شرائع الإسلام ، ولا فيها قائم حق يفصل بين الحلال والحرام ، وبعد فإنّه اجتمع[4] كبار قحطان ، وشيوخهم جميعاً[5] ، واجتمع[6] تسعون[7] خيالاً ، وعزموا إلى عند القاضي زيد بن يوسف ، وهو مع الإمام مطهر بن محمد[8] ، واهدوا إليه هدية كبيرة ، واحرموا عنده ، وحلفوا من طعام ...[9] إلا أن يفسح لهم أن ينقولوا القاضي زيد بن يوسف ، وهو كان مع الإمام مطهر : وزيره الأعظم ، وحاكم شريعة[10] الله بين : الفصيح ، والعجم ، وهو مع الإمام مجلّل معظم ، فلما درى[11] الإمام أن المشايخ ما يعذرونه[12] من مسير القاضي

---

١ – عبد الله أبو داهش ، « أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الفكر والأدب بجنوبي الجزيرة العربية » ٣٠ .
٢ – يمكن التعرف على كثير من تاريخ الأسر العلمية ببلاد السراة في كتاب : « الحياة الفكرية والأدبية في جنوبي البلاد السعودية » للباحث .
٣ – وثيقة خطية ، توجد صورة منها لدى الباحث ، ولعل هذا التاريخ هو تاريخ نسخ هذه الوثيقة من أصلها ، يمكن أن يصدق تاريخ تحرير الوثيقة الأصل مع حياة : الإمام مطهر بن محمد .
٤ – في الأصل : « اجتمعوا » .
٥ – في الأصل : جميع » .
٦ – في الأصل : « اجتمعوا » .
٧ – في الأصل : « تسعين » .
٨ – انظر : « البدر الطالع » للشوكاني ٢ / ٣١١ .
٩ – الكلمة غير مقروءه في الأصل .
١٠ – في الأصل : « شريعت » .
١١ – في الأصل : « درا » .
١٢ – في الأصل : « مايعذروه » .

زيد معهم...[1] بخزانة عظيمة كبيرة من القرآن العظيم، والعلم الشريف ، وسار معه من أصحابه من الذين يلوذ بالقاضي[2] : عبيده، وخدامته، وحاشيته حاشية كبيرة قدر مائتي نفر...[3] فلما وصلوا بالقاضي[4] زيد إلى بلاد قحطان ، فتمالوا أين يجعلونه، ثم أنهم اجتمعوا أن يجعلوه في الحرجة، حيث إنها متوسطة لبلاد قحطان، وجعل[5] له قحطان على أنفسهم قاعدة صحيحة أنهم ممتثلين لما حكم به القاضي على[6] ما نطق به : القرآن العظيم ، والكتاب وسنة رسول الله ﷺ ، وكانوا ينساقون إليه من : ذهبان إلى ظهران للشرع »[7] .

أما أسرة الأشراف بأحد رفيدة ، فهناك رسائل خطيه إليهم من أئمة الدرعية تبين لهم إقرارهم على واقعهم الديني ، وتظهر حرمتهم ومنزلتهم ، ومنها رسالة الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى أمير عسير عند ئذ ، يقول فيها : « أشراف رفيدة يذكرون أن رفيدة يتعدون عليهم في النوائب وغيرها والأشراف لهم حقهم ، ومن حقهم: الوقار ، وكف الأذى عنهم لأجل السلسلة المباركة »[8] ، ومثلها رسالة الإمام عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي يقول فيها : « إن الأشراف لهم حق على كل مسلم لأجل جدهم ﷺ والأوقاف التي لهم في الأراضي ليست بزكاة ، ولا فطرة ، ولا خوف من شر أحد من الخلق ، بل مراد الواقف بذلك برًا بهم ، وإحساناً إليهم ، فهذا لا بأس به ، ويكون ثابتاً لهم »[9] .

وأما أسرة الفقهاء بعبس بتهامة بني شهر فتعد - بعد انتقال رجال منها إلى الجبال - من أشهر بيوتات العلم في بلاد السراة ، إذ قيل بانتشارهم في قبائل رجال حجر وغيرها، ولازالوا معروفين في قبائلهم حتى اليوم[10] ، ومما يستحسن في ذكر أسرة آل الجدي بخثعم بروز أحد رجالهم ، وهو : الشيخ أحمد بن محمد الجدي الذي قال فيه محمد بن أحمد الحفظي (١١٧٦ - ١٢٣٧هـ) عند مروره به في قريته بخثعم :

١ - الكلمة غير مقروءة في الأصل .
٢ - في الأصل : « باالقاضي » .
٣ - في الأصل : مائتين ، وهنا : كلام محذوف من أجل اختصار النص .
٤ - في الأصل : « با القاضي » .
٥ - في الأصل : « و جعلوا » .
٦ - في الأصل : « علا » .
٧ - وثيقة خطية مصورة ، توجد لدى الباحث صورة منها .
٨ - وثيقة خطية مصورة .
٩ - وثيقة خطية مصورة .
١٠ - انظر : « بيوتات العلم بقبائل رجال الحجر » للباحث ، العرب ، ج٧ ، ٨ ،س٢٨ (المحرم وصفر ١٤١٤هـ) ٤٦١ .

لقد منَّ مولانا الإلهُ بنعمةٍ تعادلُ لطيبِ العمرِ من حُسنِها عندي
وذاك اتفاقي بالشريف الذي له من العلم سهم وافرٌ أحمد الجدي[1]

ولقد عُرفت أسرة آل مسبل بقرية آل الشاعر ببللحمر بوفادة الدارسين إلى علمائها ، وبخاصة من رجال الحجر ، إلى جانب شهرة رجالها في : القضاء ، والفتيا ، والتعليم ، ويقال بأن هناك ، رأياً يقول : إن أسرة آل مسبل هذه تعود في أصلها إلى الأشاعرة بحلي ابن يعقوب[2] ، ومما يزيد في قيمة حركة التعليم ببللحمر أيضاً أن هناك أسرة تعرف بآل دغيم كانوا يتوارثون بينهم مصحفاً مخطوطاً ، اقتناه أحد أجدادهم عن طريق الشراء الصحيح ، ولا زال فيهم حتى اليوم[3] .

أما أسرة آل فاهمة بمحائل عسير ، فقد قيل : إنهم من آل البيت ، إذ ورد في إحدى الوثائق الخطية قولهم : « يعلم الواقف على هذا الخط ، والناظر إليه أن ابن فاهمة شريف فاطمي من ذوي حسن ، وإنما سمّوا بذلك آل فاهمة لأن جدهم تزوج بامرأة يقال لها فاهمة وهم في بلاد يسمّون الولد بأمه فشملتهم جدتهم فاهمة »[4] ، وقيل في هذه الوثيقة أيضاً : « وأمَّا الجد الأول الذي خرج من أرض الشام ، يقال له : مبارك بن بدر ، خرج من وادي الصّفراء إلى اليمن في سنة خمسمائة من بعد الهجرة النبوية »[5] ، ولكنه استقر في بلدة محائل عسير ، وأسرته فيها إلى اليوم ، ويعد « آل موسى بيت علم وقضاء »[6] في بلاد قحطان .

ولعل هجرة الشيخ موسى بن جعفم من بيت الفقيه ابن عجيل بتهامة اليمن إلى رجال ألمع في سنة (١٠٠١هـ) ، قد ساعد على إيجاد ركائز أولية للفكر بتلك الأنحاء من جزيرة العرب ، فقد وصفه عبد الرحمن بن أحمد بن عبد القادر بن بكري بأنه : « أول داعٍ للإسلام في بلاد عسير »[7] ، وبأنه أول من بنى مسجداً بتلك النواحي [8]، ورغم ما

---

١ – مقابلة شخصية مع الشيخ عبد الخالق بن محمد عبد الله ، جبل البلس في ١١ / ١١ / ١٤٠١هـ .
٢ – حديث شفهي مع الشيخ عازب بن سعيد آل مسبل في ٤ / ٢ / ١٤١٥هـ .
٣ – سعيد بن عبد الرحمن الأحمري ، « آل عايض بن دغيم » ٥٤ ، قيل في هذا المرجع : بأن عندهم مصحف مخطوط شراه أحدهم بعشرة ريالات فرانسي من رجل يقال له سعيد بن ساتر من قرية ذبوب « وكان لمرأة من قرية حوراء ، تزوجت عندهم ، وكانت تعلّم فيه القرآن الأولاد ، وبنات القرية ثم ماتت فورثنا المصحف » ٥٤ .
٤ – وثيقة خطية توجد لدى الباحث .
٥ – المصدر نفسه .
٦ – محمد بن مسلط بن وصال البشري ، كتابه السابق هـ ٢١ .
٧ – « نسب الفقهاء آل عجيل برجال ألمع » ورقة ١ .
٨ – «المصدر نفسه ، ورقة ١ .

أحدثه هذا القول من نقاش فكري جاد لدى نفر من أبناء رجال ألمع في وقتنا هذا[1] ، إلا أن إسهام البكريين في الحركة العلمية بعسير غير خافٍ على الدارسين بغض النظر عن صحة القول السابق من عدمه ، إذ كان منهم القضاة والدعاة ، وطلاب العلم .

وحينما يحاول الباحث إلقاء الضوء على ذكر بعض علماء هذه البلاد السَّرْوية الذين عاشوا في رحابها يجد مشقة في تحديد أسمائهم والتعريف بهم ، وذلك لقلة المصادر حولهم ، ولأن هذه الجبال السَّرْوية لم تكن دار رحلة ، بل هي منطلق هجرة ، منها : يرحل أبناؤها في الآفاق من أجل : الرزق ، وطلب العلم أو غير ذلك ، ولم يُحفظ لأبنائها الذين غادروها منذ الفتح الإسلامي سوى أنسابهم ، إذ أفاضت - كما قلت من قبل - المصادر بذكرهم وخاصة الأزديين منهم ، ولا أدل على ذلك مما ورد - على سبيل المثال - في كتاب : « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة »[2] ، لابن حجر العسقلاني ، إذ هُم وإن عُرفوا بأنسابهم ، إلا أنّ ثقافتهم كانت ثقافة البلاد التي استقروا فيها ، والأمر عند ئذ يختلف عن ثقافة أوطانهم السّروية التي عاش فيها غيرهم من إخوانهم المستقرين بها ، حيث كانت حياتهم العلمية ضعيفة متواضعة .

وعلى الرغم من ذلك عُرف رجالٌ منهم عبر هذه الفترة ممن لهم صلة بمقامهم بأرض السَّراة ، وقد دلّت على ذكرهم بعض المصادر مثل كتاب : « خلاصة الأثر » للمحبي الذي يقول فيه : « وكان بقي عليَّ بعض أخبار اليمن والحجاز ، وقد تعسّر عليَّ في طريق تطلب حقيقتها المجاز ، فلما منَّ الله عليَّ وله المنةُ ، والمنحةُ التي لا يشوبها كدر المحنة بالمجاورة في بيته المعظم ، والالتقاط من بحار أهليه الدر المنظم ، تلقيت من الأفواه تراجم لأناس يسيره»[3] ، وهذا يدل على أنَّ المجاورين لبيت الله من جنوبي الجزيرة العربية قد أسعفوا المحبي في تأليف تراجم كتابه ممن لم يكن لهم ذكرٌ عنده ، هذا بالإضافة إلى الحجاج ، وآمين بيت الله الحرام .

---

١ - مثل محمد حسن غريب الألمعي في مقالاته بمجلة المنهل ، ومنها : « حول نفحات من عسير » ح١١ ، مج٣٥ ، س٤٠ ، (ذو القعدة والحجة ١٣٩٤هـ) ٩١٧ .

٢ - مثل : محمد بن أبي القاسم الأزدي ٤ / ٢٦٧ ، أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي ١ / ٢٩٨ ، أحمد بن علي بن أحمد ابن محمد الأزدي ١ / ٢١٧ ، أحمد بن عبد الله بن محمد الأزدي المراكشي نزيل القاهرة ١ / ١٩٧ ، أحمد بن أحمد ابن الحسين الأزدي ١ / ١٠٥ ، عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدي ٢ / ٤٣٩ ، أحمد بن محمد الخثعمي ... ولي قضاء بعض الجهات بالأندلس ١ / ٢٨٥ ، أحمد بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن ظافر الأزدي ١ / ٣٠٠ ، إسماعيل بن حاجي الأزدي ١ / ٣٩٠ ، علي بن محمد بن أحمد بن أحمد الأزدي الحلبي المكي ٣ / ١٧٣ ، محمد بن أحمد المذحجي ٣ / ٤٣٣ ، محمد بن أحمد بن الحسين بن علي بن ظافر الأزدي ٣ / ٤٠٣ ، وانظر في ذلك : « الأنساب » للسمعاني ٣ / ٦٨ .

٣ - ١ / ٣ .

ونتيجة لذلك توافرت المصادر على ذكر رجال من فقهاء السراة وعلمائها عبر هذه القرون الإسلامية الوسيطة ، منهم : إبراهيم الخليفي[١] ، إسماعيل بن إبراهيم بن عطية النجراني [٢]، إسماعيل بن أحمد بن عبد الله بن إبراهيم بن عطية النجراني « من أكابر علماء القرن التاسع »[٣] الهجري ، أفضل بن محمود بن محمود السَّرْوي ، قال فيه الفاسي : « هكذا وجدتُه مذكوراً في حَجَرِ قبره بالمعلاة ، وتُرْجم له فيه : بالشيخ الصالح العابد الزاهد ، العالم الكامل العارف بالله ، توفي بمنى في أيام التشريق سنة سبع وعشرين وسبعمائة »[٤] للهجرة ، الشيخ بكري بن محمد العجيلي الرجالي الذي قيل فيه : «ثلاثة لم يكن أشهر منهم بالإحسان ، وفعل الخير ، وانتشار الصيت لهم في مشرق الأرض ومغربها ، فاثنان منهم من أهل [الثروة] ، وهما : الأمير عز الدين القطبي ، وأبو الغيث بن عفلق ، وثالثهم الشيخ بكري بن محمد ، وهو يفضُلهم بالعلم والولاية ، والإنفاق من غير ثروة ... »[٥] ، جعفر بن عُلْبَة : « كانت إقامته بنجران »[٦] ، خلف بن حسن بن ناصر بن مقدم القحطاني ملك البحار[٧] ، الفقيه الدوسري المعروف سنة (٩٢٣هـ)[٨] ، صبيح بن مداوي بن مارد ، قيل عنه بأنه من فقهاء بللسمر ، ومن علماء تلك الفترة ، «وله احترامه ومحبته بين أفراد قبائله على مستوى رجال الحجر »[٩] ، عبد الرحمن بن إسماعيل الخلي اليمني الأنصاري الشافعي القحطاني[١٠] ، عبد الرحمن الشهراني[١١] ، أبو عمرو عثمان بن هاشم الحجري ، قال عنه الشرجي : « أظن أصله من الجبل »[١٢] ، الفقيه علي بن إبراهيم عطية النجراني[١٣] ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن جميع الملقب بالسّني ، قال عنه الشَّرْجي : « صاحب الخليف ، وهي قرية قريبة من قرية الخُلف ، وهما من الحجاز مما يلي اليمن »[١٤] ، محمد بن عبد الهادي بن بكري ، وهو عالم : « أهل الحجاز المتصل بطور السراة من جهة اليمن »[١٥] ، محمد بن

١ - حمد الجاسر ، « مع الموسوي المكي في رحلته (٨) » ، الفيصل ، ع ٢٣٠، س ٢٠ (شعبان ١٤١٦هـ)٣٦ .
٢ - محمد محمد زبارة ، « ملحق البدر الطالع » ٢ / ٥٦ .
٣ - المصدر نفسه ٢ / ٥٧ .
٤ - « العقد الثمين » ٣ / ٣٢٢ .
٥ - ورقة مخطوطة ، يوجد أصلها لدى الباحث .
٦ - الزركلي ، « الأعلام » ٢ / ٢٥ وتمام القول « ... ثم قتله عقيل السري بن عبد الله الهاشمي ، عامل المنصور على مكة قصاصاً » ٢ / ٢٥ ، قلت : وهذا يدل على أن نجران يتبع الحجاز دون ريب .
٧ - السخاوي ، « الضوء اللامع » ٢ / ١٨٣ .
٨ - العيدروسي ، « النور السافر » ١١٢ .
٩ - عوض بن خزيم آل سرور الأسمري ، « قبيلة آل مارد » ٣ .
١٠ - المحبي ، كتابه السابق ٢ / ٣٤٩ .
١١ - عبد الله مراد أبو الخير ، « المختصر من كتاب نشر النُور والزّهر » ١ / ٢٠٢ .
١٢ - « طبقات الخواص » ١٩٢ .
١٣ - زبارة ، « ملحق البدر الطالع » ٢ / ١٥٢ .
١٤ - كتابه السابق ٣٣١ .
١٥ - عبد الرحمن البهكلي ، نفح العود ١٣١ .

عمر الحجري المتوفي سنة (٧٠٧هـ)[١] ، محمد بن عيسى بن سالم بن علي بن محمد الأزدي الدَّوْسي[٢] (٦٠١-٦٧٤هـ) ، موسى بن علي بن محمد بن عبد الله بن محمد بن ثابت البكري ، أبو عمران السَّرْوي المعروف بالزهراني[٣] (...-٧٥٣هـ) ، أبو محمد موسى بن عيسى بن يوسف الزهراني : « صاحب الخُلف بتهامة »[٤] السراة (...-٨٢٨هـ) ، ولعل صوابه (٩٢٩هـ)[٥] ، الفقيه موسى القرشي[٦] ، يحيى البجلي : « أصله من بجيلة زهران من ضواحي مكة ، فأقام بمكة يتعبد حتى اشتهر »[٧] ، توفي سنة (٨٢٠هـ)[٨] .

ويتسق واقع التأليف والإسهام الفكري في إطار الحديث عن حركة العلم والعلماء لولا أن معظم ما ذُكر من مؤلفات علماء هذه المنطقة ومؤرخيها عبر هذه الفترة لم يسلم من دواعي الظن ، وأسباب النظر ، وبخاصة ما قبل القرن الثالث عشر الهجري[٩] ، والسبب في وجود هذا الإحساس: تواضع الحياة العلمية بجبال السراة حينذاك ، ولأن تلك المؤلفات السابقة لم تظهر ، ويعرفها الناس ، إلا في زماننا ، حيث لم يذكر شأنها من قبل .

ومهما يكن من أمر فمن تلك المؤلفات المجهولة كتاب : « النجوم اللوامع من مختصر التواريخ الجوامع »[١٠] للمقداد الحرجي ، « المذكرات في مختصر مسيرة أمراء عسير »[١١] لجعفر الحفظي ، « المروج الحسان في تراجم الأمراء والأعيان »[١٢] للحنظلي ، « القول الجلي في تاريخ أمراء حلي »[١٣] لأبي شهاب الحربي ، « الوشي المحبوك »[١٤] لزين العابدين بن إبراهيم الذي « أكمل فيه [كما قيل] تاريخ ما وقف عنده المؤرخ محمد بن ناصر آل موسى صاحب كتاب السلوك إلى تاريخ الملوك ، حيث وقف في تاريخه مع نهاية القرن الحادي عشر الهجري »[١٥] ، « طبقات العلماء »[١٦] للشيخ موسى بن جعفر الذي اختصر فيه : « تراجم علماء منطقة عسير من بيشة حتى صعدة ، وكذلك الأفلاج ،

---

١ - أحمد القنفذ وآخرون ، « ألف سنة من الوفيات » تحقيق محمد حجي ٩٩ .
٢ - الفاسي ، كتابه السابق ٢ / ٢٤٦ .
٣ - المصدر نفسه ٧ / ٣٠١ .
٤ - السخاوي ، كتابه السابق ١٠ / ١٨٨ ، وانظر : « طبقات الخواص » للشرجي ٣٤٧ .
٥ - انظر : « المنتدى » ع١ (١٤١٦هـ) ٣٤ ، نادي الباحة الأدبي .
٦ - حمد الجاسر ، « مع الموسوي المكي في رحلته ٨» الفيصل ع٢٣٠ ، س٢٠ (شعبان ١٤١٦هـ) ٣٦ .
٧ - ابن حجر ، « إنباء الغمر بأبناء العمر » ٧ / ٢٩٣ .
٨ - المصدر نفسه ٧ / ٢٩٣ .
٩ - وهذا القول يدعو إلى تمحيص حقيقة تلك المؤلفات ، ومحاولة درس هذه البيئات .
١٠ - عمر غرامة العمروي ، كتابه السابق ١ / ٦٤
١١ - المصدر نفسه ١ / ٦٤ .
١٢ - المصدر نفسه ١ / ٦٤ .
١٣ - المصدر نفسه ١ / ٦٤
١٤ - الوصال البشري ، كتابه السابق ٢١ ، ٢٢ .
١٥ - المصدر نفسه ٢١ ، ٢٢ .
١٦ - المصدر نفسه هـ ص٣٣ .

ووادي الدواسر ، ونجران ، وتهامة عسير من الليث حتى ميدي »[١] .

وعلى الرغم من طرافة عنوانات هذه المؤلفات وحسنها يجد الباحث خيبة في العثور عليها ، أو اتصاف بعضها بالتوازن الحقيقي مع مستوى الحياة العلمية بجبال السراة ، ولعل ما يدفع هذه الظنون الوقوف عندها وتوثيقها ، وتضافر مادتها نحو تغيير ما يعلمه الباحثون اليوم عن مستوى هذه الحياة ببلاد السراة بوجه عام ، والأمر عند ئذ يحتاج إلى شيء من النظر العلمي الدقيق ، وبذل الهمة من لدن العلماء والمؤرخين لكشف هذا المجهول ودفعه برؤية علمية منصفة ، بما يتفق مع حقيقة تواضع الحياة العلمية في بلاد السراة عبر هذه الفترة التي نحاول التعرف على ملامح حياتها الفكرية ، يقول أحد الباحثين : « لعل سبب إهمال نسب وتاريخ رجال الحجر هو عدم بروز أحد أبناء تلك القبائل في قديم الزمان بالعلم الكثير والاطلاع الغزير الذي يؤهله إلى الكتابة عن أرضه ونسبه ، وإن وجد منهم علماء في العصر الإسلامي لكن علمهم مقتصر على الفقه في الدين ، وتوحيد رب العالمين ، ونعم العلم هو ، غير أنهم غفلوا عن تاريخهم وماضيهم ، كما أنه يوجد منهم في أقطار المعمورة ، فهم حجريون نسباً ولا تهمهم صلتهم بأصولهم وأرضهم لبعد المسافة بين السراة والأقطار التي نزحوا إليها كمصر والشام والعراق ، ولعلهم أخذوا بمنطوق الآية الكريمة : ﴿ إنّ أكْرَمَكم عِنْدَ اللّهِ أتْقَاكُم ﴾[٢] ... »[٣] .

ويتضح مُراد هذا الباحث – على الرغم من اضطراب أسلوبه – في معنيين أولهما : قلة العارفين ، والعلماء ، وطلاب العلم ببلاد السراة الذين يعوّل عليهم النهوض بالتأليف ، والتعريف بأرضهم ، وثانيهما : تفرق أبناء هذه البلاد عبر تاريخهم الطويل في الأمصار دون الرغبة في التعريف بجبال السراة : محتد أصولهم ، ومواطن أسلافهم ، وهذا أمر متوقع لأن الذين هاجروا إلى تلك الأقطار ، إنما هم أجدادهم وأصولهم ، وانقضى ذاك الجيل دون عودة الأبناء والأحفاد إلى ديار آبائهم ، بل هم ينهلون من مصادر مقامهم ، وثقافة مواطنهم بما خفف الشعور بالكتابة عن بلاد السراة مصدر هجرة آبائهم ، وهو أمر نعرفه الآن في زماننا ، وله شواهد كثيرة ، ناهيك عن تواضع الحياة العلمية أصلاً ، مما قد لا يشجع على التأريخ لها ، وليس بغريب أن يكون مستواها العلمي متواضعاً لأننا لو قارنا مثلاً حال هذه الأنحاء اليوم بحالها قبل نحو سبعين سنة مضت للاحظنا تواضعها تماماً ، فالحق أن الحياة العلمية إنما تتفوق حينما يصاحبها شيء من : اليقظة الفكرية ، والحركة

١ – المصدر نفسه هـ ص ٣٣ .
٢ – سورة الحجرات من آية ١٣ .
٣ – سعيد بن عوض الأسمري ، كتابه السابق ٧٨ ، ٧٩ .

النقدية ، والمدارس ، والنهضة الدينية ، ونحوها ، وإلا فستبقى في عُزلة تامة ، وحياة علمية متواضعة ، وهو الذي حصل لهذه البلدان ببلاد السراة وجبالها .

ومع ذلك كله لم تخل بلاد السراة عبر القرون الإسلامية الوسيطة من وجود شيء من الومضات الفكرية المحدودة ، إذ نلحظ هجرة العلماء إليها واستقرارهم فيها بما يحقق تلك الملامح العلمية ويظهرها ، ومن أولئك العلماء : أبو ذر الهروي (٣٥٦-٤٣٤هـ) « المعروف ببلده بابن السّماك الأنصاري الخرساني الهروي المالكي »[١] ، « خرج إلى مكة ، وجاور ، ثم تزوج في العرب ، وأقام بالسَّروات ، فكان يحج كل عام ، ويُحدث ثم يرجع إلى أهله »[٢] ، ويروى : « أن الفقيه أبا عمران الفاسي مضى إلى مكة ، وقد كان قرأ على أبي ذر شيئاً ، فوافق أبا ذر في السّراة موضع سُكناه ، فقال لخازن كتبه أخرج إليّ من كتب الشيخ ما أنسخه مادام غائباً ، فإذا حضر قرأته عليه ، فقال الخازن : لا اجترىء على هذا ، ولكن هذه المفاتيح ان شئت أنت ، فخذ وافعل ذلك ، فأخذها ، وأخرج ما أراد ، فسمع أبو ذر بالسَّراة بذلك ، فركب وطرق مكة ، وأخذ كُتبه ، وأقسم أن لا يحدثه ، فلقد أُخبرت أن أبا عمران كان بعد إذا حدث عن أبي ذر ، يورّي عن اسمه ، فيقول : أخبرنا أبو عيسى ، وبذلك كانت العرب تكنيه باسم ولده »[٣] ، ولفظ العرب هنا إنما أراد به عرب السراة .

ولم يكن أبو ذر وحده الذي سكن بلاد السراة وتزوج فيها ، بل كان ابنه أبو مكتوم الهروي قد صنع مثل أبيه ، إذ قيل : إنه كان « يُحج من السَّراة »[٤] ، وأنه حج : « في سنة سبع وتسعين وأربع مائة ، وله بضعٌ وثمانون سنة ، وحج فيها أبو طاهر السّلفي ، وأبو بكر السمعاني ، وجمعهم الموقف ، فقال السمعاني للسلفي : اذهبْ بنا نسمع منه ، قال السلفي : فقلت له : دعنا نشتغل بالدعاء ، ونجعله شيخ مكة ، قال : فاتفق أنه نفر من منى في النفر الأول مع السَّرْويين وذهب ، وفاتهما الأخذ عنه ... قلت ولم يُسمع لأبي مكتوم بعد هذا العام بذكر ... »[٥] وقلت أيضاً : وهذا شأن كثير من السَّرويين اليوم الذين يتعجلون في حجهم .

وعلى الرغم من إهمال المصادر لذكر حركة التعليم في بلاد السراة عبر هذه الفترة

---

١ - الذهبي ، « سير أعلام النبلاء » ١٧ / ٥٥٥ .
٢ - المصدر نفسه ١٧ / ٥٥٥ .
٣ - المصدر نفسه ١٧ / ٥٦١ .
٤ - المصدر نفسه ١٧ / ٥٦١ .
٥ - المصدر نفسه ١٧ / ٥٦١ ، ٥٦٢ .

نجد شيئاً من الومضات العلمية التاريخية المحدودة التي تعبر عن رغبة الأهلين في التعليم، وحرصهم عليه، فلقد روي لنا ابن جبير في رحلته إلى مكة المكرمة سنة (٥٧٩هـ) أنه شاهد في الحجر صبياً من السَّرْويين : « قد جلس إلى أحد الحجاج يُعلمه : فاتحة الكتاب ، وسورة الإخلاص »[١] ، وأنه عجب - كما قال - « من أمره ومن معرفته طبعاً بصلة الكلام وفصله دون تعلم »[٢] ، كما دلت بعض الوثائق التي كُتبت سنة ١١٥٩هـ/ ١٧٤٦م أن الأهلين في رجال ألمع قد : « أقاموا الفقيه عبد القادر بن بكري على المعلامة »[٣] ، هذا بالإضافة إلى الجهود المتوقعة لخدمة العلم والتعليم من لدن علماء الأسر العلمية بالسراة ، والذين يفترض في قدراتهم العلمية الفائدة والعطاء .

وكانت الرسائل ترد إلى علماء آل بكري في بلدة رجال ألمع من أنحاء متفرقة تحمل أسئلة : دينية ، مذهبية ، ولغوية ، وإخوانية ، وغير ذلك . فكانوا يجيبون عليها ، ويسارعون في الرد على أصحابها بأسلوب علمي تقليدي يوافق أساليب مرسليها . ومن تلك الرسائل رسالة نظمية بعث بها الفقية عبده بن هادي أبو شاتي من حلي ابن يعقوب إلى الشيخ أحمد بن عبد القادر الحفظي (١١٤٥-١٢٢٨هـ) ، يقول في مطلعها :

ماذا يقول الحبر مفتي عصرنا ... الشيخ قدوتنا ابن عبد القادر

شمس العلوم، إمامنا وولينا ... وولي ذي العرش المجيد الغافر

فيما يبلغنا الرواة عن النبي ... علمُ الهدى اليثربي الطاهر

يروون عنه أن ميت جمعة ... يوقى[٤] من الهول الشديد الباهر[٥]

وقد أجابه الحفظي برسالة علمية ضمّنها قصيدة نظمية مماثلة، وافقت القصيدة السابقة من حيث : الوزن والقافية ، وأتت مشتملة على أحكام فقهية واضحة ، إذ قال في مطلعها :

وافى سؤالك يا حبيب الخاطر ... كالبدر نوراً أو كغيث ماطر[٦]

وإذا كانت هذه الرسالة قد اتخذت أسلوب النظم سبيلاً للإبانة عن مقاصد

---

١ - كتابه السابق ١١٣ .
٢ - كتابه السابق ١١٣ .
٣ - وثيقة خطية ، توجد لدى الباحث .
٤ - في الأصل : يوقا .
٥ - في الأصل : عبد القادري ، الغافري ، الطاهري ، الباهري ، وهي رسالة منظومة مخطوطة توجد في قسم المخطوطات ، بجامعة الملك سعود برقم ٣٣١٢ / ٣م .
٦ - المصدر نفسه .

أصحابها ، فإن كثيراً من العلماء في هذه المدينة كانوا يستخدمون أسلوب النثر للإجابة عن الأسئلة العلمية المستعصية(١) .

وفي سنة ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م بعث الشيخ محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني (١٠٩٩-١١٨٢هـ) برسالة إخوانية إلى الشيخ عبد الهادي بن بكري العجيلي ببلدة رجال ألمع بتهامة عسير ، إذ قال : « ... وقد عقدت بيني وبينكم عقد الوداد الذي لا ينحل إلى يوم المعاد ، يوم نرجو شفاعة سيد الأنام في يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فاجعل دعواتك لي مبذولة في جميع الأوقات بمغفرة الذنوب ، وتكفير السيئات ، وبحسن الختام ، فإن ختم الله برضوانه فكل ما لاقيته سهل ، وقد جعلت أوقاتي قومةً على نشر : الكتاب ، والسنة ، ودعاء العباد إليهما ، وأرجو من الله القبول ، وأسأله اللطف ، والثبات فيما نفعل ونقول ، ولقد أحسنتم أحسن الله إليكم بالمعاهدة ، فلا تتركونا منها ... »(٢) ، وهذا الحال يدل على حقيقة الاتصال الفكري بين علماء اليمن ، وبلدان السراة ، وأن فقهاء رجال ألمع بتهامة عسير كانوا أهلاً لصداقة إخوانهم من المجاورين لهم ، مما يشير إلى منزلتهم ، وقدر علمائهم ، وبخاصة إذا علمنا منزلة الصنعاني في وطنه ، وأنه على قدر كبير من المكانة العلمية ، إذ لم ير كبير بُعدٍ من مراسلة أخيه عبد الهادي العجيلي بهذه الأنحاء .

١ - انظر : « الحياة الفكرية والأدبية بجنوبي البلاد السعودية » للباحث ٨٧ ، ٨٨ .
٢ - عبد الله أبو داهش ، « حوليات سوق حباشة » ع١ ، س١ (١٤١٦هـ) ١٤٢ ، ١٤٣ .

المبحث
السادس

ملامح حياتهم الأدبيـة :

يختلف الأدب عن غيره من الفنون الفكرية الأخرى ، إذ يرصد فيه المؤرخ الأدبي القضايا الفكرية والإنسانية المختلفة برؤية نقدية ظاهرة دون التقصي لجذورها الفكرية : شأن المهتمين بدراسة الظواهر : الاجتماعية ، أو الجغرافية العامة ، وهذا نهج يدع الفرصة مواتية لتحقيق الشمولية والاستيعاب ، فهو إن عثر على نص لشاعر من إحدى بيئات درسه ، رآه ممثلاً لتلك البيئات الأخرى ، فالأدب عند ئذ يغشى بتأثيره المنطقة الجغرافية التي يُدْرَسُ فكرها وأدبها ، وهذه الرؤية تنطبق على منهج التأليف هنا ، إذ المراد بقولنا : الأدب في بلاد السراة عبر هذه الفترة التي ندرسها : ما تمثله تلك القصائد المحدودة بشمولها لهذه البيئة الجبلية الواسعة ، على الرغم من قلة النصوص وندرتها ، وهذا يعكس القول بتمثيل الأدب للبيئة الواسعة دون التخصيص لكل موضع جغرافي مستقل ، وهذا النهج يخفف من غلواء ندرة النصوص وقلتها ، وهو ما ينطبق على النتاج الأدبي بجبال السراة عند ئذ ، إذ الواضح من الاستقصاء البحثي هنا أن النتاج الأدبي الفصيح لا يوازي بقلته النتاج العامي الملحون منه[1] ، وهو ما جعلنا نصدف عن درس الأخير والوقوف عنده ، ونقبل على درس الفصيح ، والبحث في ميدانه على الرغم من قلته .

ولعل من أظهر النصوص التي اشتهر ذكرها في هذه الفترة التي ندرسها تلك القصيدة التي تناول فيها صاحبها مظهراً إنسانياً جاداً يتصل بحياة الناس ، ومعاشهم في جبال السراة ، ويتمثل في واقع تعاملهم مع بيئتهم ، وما توجيه عليهم عقيدتهم تجاه خالقهم سبحانه وتعالى عند وقوع الكرب ، وشدة اللأواء ، إذ هم عند ئذ يفزعون لمن يكشف الغمة ، ويدفع البلاء ، يقول الهمْداني إنه في نحو القرن الرابع الهجري أصاب الناس : «أزمة شديدة مكثوا سنة جرداء ، وسمّوها سنة الجمود لجمود الرياح فيها ، وانقطاع الأمطار ، وذهاب الماشية ، وهزالها ، وثبات الغلاء ، وقلة الأطعمة ، وتصرم المياه في الأودية والآبار ، وتسمّى مثل هذه السنة : الحطمة ، والأزمة ، واللزبة ، والمجاعة ، والرمد ، وكحل ، والقصر ، والشدة ، والحاجر ، فأقبل الناس بالضجة والعواء والتضرع إلى بيت الله الحرام من أرض : نجد ، وأكناف الحجاز ، وأرض تهامة ، والسروات يدعون الله عزّ وجل بالفرج لهم ، ويستسقون . وكان في الوفد المستسقين من أهل نجد شاعر يقال له

١ - انظر شيئاً منه في كتاب : « عسير في مذكرات سليمان الكمالي » لأحمد بن حسن النعمي ٢٥ .

الخزازة العامري أنشد شعراً يذكر آلاء الله عز وجل فيه ، ورحمته التي كانت تشملهم ، وتشمل أرضهم بلداً بلداً ووادياً وادياً وجبلاً جبلاً ، فقال :

ربّ ندعوك فاستجب فبك الدّهـ ـرُ عَن الخلق تُكشَفُ الغَمّاءُ
إنَّ أيُّوبَ حينَ ناداكَ لم يُحـ ـجَب لأيُّوب ربٌّ عَنكَ النِّداءُ
مسّهُ الضُّرُّ فاستجبتَ له الدعـ ـوَةَ لَمَّا به أضَرَّ البلاءُ

* * *

فأغثنا إلاهَنا ولَك الحَمـ ـدُ بغيثٍ تَجُرُّه الأنواءُ
يُنعشُ الناسَ في السَّوارحِ والوحـ ـشِ وتُحيي الجديدةُ الغبراءُ
فَلَكَم ثم كم رأيتُ غُيوثاً لك تقتادُهَا الرياحُ الرُّخاءُ
سُقي الشِّحرُ فالمزونُ فما حَا زَت ذواتُ القَطيفِ فالأَحساءُ (١)

وأخذ لايلوي على شيء يعدد ديار نجد وأحواز الحجاز ، وربى الحزون ، ومآتي أودية السراة ، حتى إذا سمع : « الوفد المستسقون من أهل تهامة وسرواتها هذا الشعر ، وكان فيهم شاعر يقال له أبو الحياش الحجري من : الحجر بن الهِنْو ، فسألوه أن يقول شعراً في مثل ما قال الخزازة فأنشأ أبو الحياش ، يقول :

رَبِّ ما خابَ من دعَاكَ ولا يُحـ ـجَبُ ياذا الجلال عَنكَ الدُّعاءُ
لم يخب للنَّبيِّ يَعقُوبَ ياذا الـ ـعرشِ فيما دعا لديكَ الرَّجاءُ
رَبِّ أنتَ الذي رددتَ عليه بَصَراً كانَ قَد محاه البُكَاءُ
وابنَهُ يوسُفاً جَمَعتَ عليه بَعدَ أن مَسَّ يُوسُفَ الضَّرَّاءُ
وحشَةً منه في الغيابة للجُـ ـبِّ وَفي السِّجنِ حينَ طالَ الثواءُ
رَحمةً منكَ هَب لنَا إنَّنا نحـ ـنُ لَكَ اللَّهُ أعبُدٌ وإمَاءُ
إن هاتا لأزمةٌ عَمَّت النَّا سَ ومَستْهُمُ لهَا البَأساءُ
ولَكم ثُمَّ كم سَقَيتَ لنا الأر ضَ غُيُوثاً أتَت بها الأَنواءُ
سُقيَت حَضرَمَوت منها مع الأحقـ ـقَافِ ريّاً وعلَّت الأَسعَاءُ
طُبِّقَت بالسُّيول أبينَ حتَّى لحجهَا وهي والسَّماءُ سَواءُ
تلكُمُ أحوَرٌ وتلكَ الدّثَيا تُ مع السَّروِ جَنَّةٌ خضراءُ

---

١ - كتابه السابق ٢١٤ ، ٢١٥ .

ولذُبحَان فالمَعافرُ فالسّا حلُ من غَورِهَا ضَبابٌ عَماءُ
فقُرى شرعبٍ مَعَ الجَند العُلْـ ـيَا فما حازت الزيادي رُواءُ
فالسَّحُولان فالمُذيخرةُ الغيـ ـثاءُ عُلّت فَحيسُهَا القوراءُ
وأربّت تصوبُ فوق زَبيد مثلَ ما صبَّ في الحياضِ الدلاءُ
ولجبلانَ سالَ في رمَع الطَّمـ ـمُ وجادت على ذؤال السّماءُ
وعلى سُردُدٍ مسفٌ من الجو د لسُقياه أحييت الكدراءُ
وللعسانها فأرضِ طمامٍ فلعيانُ ديمةٌ هطلاءُ

* * *

سقى الطودَ من حرازٍ فمن هو زن غيثاً لِهَيدَ تيه الطَّخاءُ
فقرى مَور فالقريضةُ فالشَّر جَةُ فالواديان فالسّلعاءُ
وادْلهَمَّت على قرى حَرضٍ يو مين بالسّح مُزنَةٌ سوداءُ
سَقَيَت بُرهةَ قُرى خُلب منـ ـها فَجازانُ تلكَ فالصَّبياءُ
فقرى بيشٍ فالدويمات فالبر ك فحليٌّ ممطورةٌ غنَاءُ
ومن الطودِ فالزنامات خُضرٌ رُويت فالتُّنومَةُ الزَّهراءُ
فَقُرى الحجر جهوة الزرعِ والضر ع فأشجانُها الحنا فالجباءُ
فجبال السراة فالفرع الوسـ ـطى حكَينَ الجنانَ فالحيفاءُ
فالشذاوان من سُقامة فالمر حلَةُ المرجَحنَّةُ النَّجلاءُ
فقرى مَغسلٍ فأوديَةُ النَّهـ ـيينِ فالوادي ذي النُّجُول العذاءُ
فالذُّرى من سَرَاة غامدَ فَالنَّمـ ـرِ فاجبَالُ دوسِهَا طَخيَاءُ
فقريالدَّارتين أرضُ عَليٍّ سَهلُهَا والجبالُ منهَا الماءُ
فالشَّبابَاتُ فالمعادنُ فالطَا ئفُ فالوَيلُ أرضُهُنَّ سَمَاءُ
فَقَنونا فأرضُ دوقةَ فلِلَّيـ ـثُ فَعَشمُ السَّرّينِ فالسَّراءُ[1]

لقد أتت هذه القصيدة معبرة عن شعور الشاعر تجاه خالقه سبحانه وتعالى، حيث أحسن التوازن بين ذكر رحمة ربه، وظروف بيئته التي أجد بها القحط، وأنهكتها السنون، إذ رجع في إنكسار المؤمن يتلمس رضا ربه، ويسأله رحمته، ولم يفت به الشعور النفسي الصادق، بل أقبل مع قومه نحو بيت الله، وهناك في مكة سكب دموع وجده،

---

١ – كتابه السابق ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨.

واستفاض به الحزن حتى جأر بالنداء الصادق في رحاب الحرم الشريف مع ثُبات كثيرة من أهل الجزيرة العربية ، حتى إذا لم يجدوا مساراً يسكبون فيه هذه الآلام ، استخدموا الشعر فحمل أحزانهم في عرض شائق طريف ، إنها وقفات إنسانية جاد بها هذا العطاء السَّرْوي الممتاز .

وفي غياب المصادر التاريخية المأمولة يظهر عدد من المؤلفات الوافرة التي تتحدث عن نفر من شعراء عسير الإقليمية مضفية لهم بعض القصائد المتفاوتة التي تحتاج إلى التوثيق والدرس المنصف الجاد ، ومع ذلك فلم أر بأساً في الإشارة إليها في هذا العرض الأدبي الموجز ، حيث أحاطت كتب : « امتاع السامر بتكملة متعة الناظر » لشعيب بن عبد الحميد بن سالم الدوسري ، و « تاريخ عسير في : رسالة إبراهيم بن علي زين العابدين الحفظي » لمحمد بن مسلط بن عيسى الوصال البشري ، و « عسير في مذكرات سليمان الكمالي » لأحمد بن حسن بن عبد الله النعمي وغيرها : أحاطت بكم وافر من المقطوعات الشعرية ، والمنظومات الطوال لعدد من الشعراء ، أمثال :

محمد بن عبد الله بن سعيد بن هشام سنة (٤٤٠هـ) [١] ، ومحمد بن علي بن سعيد ابن هشام سنة (٤٥١هـ)[٢] ، وموسى بن محمد بن عبد الله اليزيدي سنة(٤٧٤هـ)[٣] ، وخالد ابن عبد الله سنة (٥٥١هـ)[٤] ، وسدير بن عامر الوادعي سنة (٧٨٧هـ)[٥] ، ويزيد بن عبد الرحمن الأموي سنة (٧٨٧هـ)[٦] ، وثابت بن سعيد بن زاهر آل محظي الوادعي سنة (٩٢٠هـ)[٧] ، إذ بُسِط لهؤلاء الشعراء قدر كبير من قصائدهم في بطون هذه الكتب ، مما يدعو للنظر ، والدقة في الاستنتاج ، فالقصائد متشابهة ، ذات نفس طويل متماثل ، قد توحي لقارئها بأن قائلها يكاد يكون واحداً ، وهذا الظن لا يتأكد إلا بالدرس العلمي المنصف ، حيث يمكن عند الاطمئنان بهذه النصوص رفع الحكم القائل بضعف الأدب في جبال السراة وانعدامه ، وما أظن تحقيق هذا الشأن بكبير عناء ، كما أن إطلاق الأحكام النقدية العامة ليس بمحمود ، ولا طيب العاقبة ، وهو ما دعا الباحث هنا للتورّع ، وعدم إيراد النصوص ، علّ الجهود الأدبية من قبل الباحثين تتضافر لتبيّن الحقيقة ، وتظهرها .

---

١ - أحمد بن حسن النعمي ، كتابه السابق ٢٨ .
٢ - المصدر نفسه ١٧ .
٣ - المصدر نفسه ٣٦ .
٤ - الوصال البشري ، كتابه السابق ٣٩ .
٥ - أحمد بن حسن النعمي ، كتابه السابق ١٥ .
٦ - شعيب الدوسري ، كتابه السابق ٢٥ ، ٣٤ .
٧ - المصدر نفسه ٣٩ - ٥٦ .

ومن الشعراء الأمراء : خلف بن حسن بن مهيوف بن ناصر بن مقدم القحطاني الذي ولد سنة (٧٩٠هـ) ووصف بأنه : « ملك البحار القائم بدولة الشهاب أبي المغازي أحمد متملك كلبرجة من الهند[١] » « ذكره المقريزي في عقوده مطولاً ، وبالغ في الثناء عليه ، وأنه كان جواداً يحب : العلماء ، والأشراف ، والفقراء ، ويواسيهم أعظم مواساة حتى بالإرسال لمن يعلمه منهم بالأماكن النائية سيما أشراف بني حسن ، ولذلك لم يزل مظفراً بحيث إنه ما توجه لأمر إلا وظفر به مع صيانته ومنعه الفواحش ، قال : وبالجملة فهو أحد أفراد العالم في زماننا لما اشتمل عليه من الدين والورع والكرم والشجاعة ، ونفوذ الكلمة ووفور الحرمة ، وبسط اليد في الدول بحيث إنّه لما مات سلطانه الشهاب أوصى به ابنه أبا المظفر شاه أحمد ، وقال : إن أردتم قيام ملككم فلا تغيروا على الملك خلف فامتثل وصيته، وصار له من المكانة المكينة ما لم يزل له ، وأقامه فيما أقامه أبوه »[٢] ، له قصائد شعرية ، منها قصيدته التي يقول فيها :

وإن زار داري زائر زار داره — *دنانيرُ تبرٍ خلفَها الخزُّ يحملُ*[٣]

وصفه المقريزي بأنه : « كان ممدوحاً مقصوداً بذلك »[٤] وبخاصة : « من شعراء مكة وغيرهم»[٥]، ولم تحدد وفاته لأن المقريزي مات قبله، و : « لأنه إنما قتل بعده بزمن »[٦]، ومهما يكن الأمر فهو من أعيان القرن التاسع الهجري كما ذكر ذلك : السخاوي في مصنفه التاريخي المعروف بـ : « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع »[٧] .

ولم تشهد الحياة الأدبية في القرون الأخيرة الماضية نشاطاً ملموساً ظاهراً ، إذ أن المعروف عن هذه الحياة أنها بدأت متأخرة في العصر الحديث ، ومع قيام الدولة السعودية الأولى ، وظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بهذه الأنحاء ، وما كتابا :« الحياة الفكرية والأدبية بجنوبي البلاد السعودية » و « أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الفكر والأدب بجنوبي الجزيرة العربية » للباحث سوى شاهد على هذه اليقظة الأدبية الجديدة ، ولكي تكون حلقة اتصال أدبي بين العصور الإسلامية الوسيطة ، والعصر الحديث، حيث إنه يمكن عند ئذ من خلال هذه الدراسة التي بين أيدينا الآن ربط هذين العصرين بشيء من الدرس الأدبي الدقيق ليكون في مستقبله تاريخاً أدبياً شاملاً لبلدان تهامة والسراة .

١ - السخاوي ، « الضوء اللامع » ٣/ ١٨٣ .
٢ - المصدر نفسه ٣/ ١٨٣ .
٣ - المصدر نفسه ٣/ ١٨٣ .
٤ - المصدر نفسه ٣/ ١٨٤ .
٥ - المصدر نفسه ٣/ ١٨٤ .
٦ - المصدر نفسه ٣/ ١٨٤ .
٧ - انظر المصدر نفسه ٣ / ١٨٣ ، ١٨٤ .

ومهما يكن الأمر ، فقد وجد شيء من النتاج الشعري المحدود لنفر من علماء بلاد السراة ، منه : قصيدة القاضي مناع الخثعمي في رثاء الشيخ حسين بن مهدي الكبسي سنة (١٩٩٦هـ) ، إذ قال :

خطبٌ ألمَّ بأرضِ نجدٍ أفجعَا ... وأفاضَ دمعَ العينِ مني أربعَا
رزءٌ أصابَ صغارَنا وكبارنا ... وأقامَ وسطَ القلبِ حُزناً مُوجعَا

●●●

قَد كَانَ شَمساً يستَضاءُ بنُورهِ ... ويُجيبُ دَعوَتَه الإلَهُ إذا دَعَا[١]

كذلك وجد شعر محدود لشعراء مجهولين من : نجران في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر الهجري حول ما كان ينشأ من خلافات سياسية بين مكارمة نجران ، وجيرانهم في المخلاف السليماني ، واليمن من مثل قول أحدهم :

هناكَ قامَ المكرميُّ بجنودهِ ... وعساكرٌ من قومهِ وفيالق
ذروةُ الأشرافِ مع يام الأولى ... أهلِ الحميةِ واليقينِ الصادق[٢]

ولكن هذا الشعر كان ضعيفاً لا يرقى إلى مستوى الشعرِ الذي عُرفَ في بلادِ السراةِ فيما بعد .

ولم يكن النثر ببلاد السراة في تلك الفترة بأكثر وفرة من الشعر ، وإنما كان محدوداً ضعيفاً لا يقترب من المستوى الأدبي الذي عُرف به النثر التقليدي فيما بعد ، ولعل ما يصور ذلك النثر رسالة بعث بها حسن بن عبد الرحمن الغامدي في غضون القرن الثاني عشر الهجري ، وهو في الدرعية إلى ابنه علي بن حسن الغامدي ، ومنها قوله :

« ... لا تكون بغافل عن دنياك ، ولا تقول أحد يبغي ينفعني يخرج أبي من الدرعية ، وتاهب له شيء[٣] لا قليل ولا كثير ، ولا تكن بسفيه ، فإن الله معي ، وأنت فتراني كتبت عندك خط[٤] في كلِّ أمر ، وهو مع عطية بن أحمد ، وأنا إن شاء الله أجي في قريب ، فليتك ما تغزي...[٥] »[٦] ، وفي هذه الرسالة يتبين ضعف مستوى النثر الأدبي

---

١ - لطف الله جحاف ، كتابه السابق ، ورقة ١١٠ .
٢ - من وثيقتين خطيتين لدى محمد بن حسن غريب برجال ألمع .
٣ - كذا في الأصل ، والصواب : « شيئا » .
٤ - كذا في الأصل ، والصواب : « خطاً » .
٥ - لعل معناها : تتزوج .
٦ - توجد هذه الرسالة الخطية عند صالح بن محمد بن صالح من أهالي قرية الهملة بغامد .

بلاد السراة، وميله إلى العامية، إذا كانت الأداة اللغوية في هذه الرسالة ركيكة لم تسلم من الأخطاء النحوية والإملائية، ولعل ما يظهر فيها أنها عبرت عن نفسية صاحبها بصدق، ونقلت معانية بيسر وسهولة دون تكلف وافتعال، ناهيك عن وضوح الملامح القبلية الجادة فيها[١].

وربما برز في شعر علماء رجال ألمع وأدبائها عن سواه شيء من ملامح شعر: التشيع، والتصوف ونحوهما ،إلى جانب وجود الأغراض الشعرية التقليدية المعروفة، ومن الاتجاه الأول قول أحمد بن عبد القادر الحفظي:

يَا جيرَةَ[٢] الحي كَيفَ الظَّاعنونَ[٣] فَهَل ... عَن سَادة بِالْمصلَّى عندَكُم خَبَرُ
وَهَل سَمعتُم بأحبابي وَمَا فَعَلُوا ... وهَل عَلىَ الرَّوضَة الغَنَّاء قَد سَمَرُوا

●●●

أهلُ الكسا وفَرْعُ المُصطَفى وبنو[٤] ... الزهرا ونسلُ عليّ السَّادةُ الغُررُ
والله ما شَاقني وَادي العقيقِ ولا ... أطلالُ ذي سَلَمٍ والبانُ والزَّهَرُ
لكنَّهم كَعبتي والمُنحنى[٥]وهم ... ركني وملتزمي والحِجرُ والحجرُ[٦]

ولقد تنبه إلى هذا الحسن بن أحمد عاكش، فأورد شيئاً من شعر الحفظي[٧] نفسه في هذا المجال، ثم عقب بقوله: « ولقد كاتبه بعض العلماء الأفاضل بقصيدة في هذا المباحث ونسبه إلى الحب الغالي المؤدي إلى الرّفض »[٨]، والحق أن أحمد بن عبد القادر الحفظي لم يكن غالياً في شعره، وإنما شأنه مثل: شأن غيره من علماء جنوبي الجزيرة العربية الذين يكثرون نظم الشعر في هذا الميدان دون مبالغة في الغلو، وما قد يؤدي منه إلى الرفض، إلا من هذا التجوز في البيت الخامس من هذه القصيدة السابقة حين شبه ممدوحيه فيها بالكعبة، والركن، والملتزم، ولقد امحى هذا الشعر، وما ينطوي عليه من معانٍ في العصر الحديث، واضحى ذا منهج سلفي قويم[٩].

١ – انظر: « أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الفكر والأدب بجنوبي الجزيرة العربية » ٣٣.
٢ – في الأصل: « جيرت ».
٣ – في الأصل: « الظاعنين ».
٤ – في الأصل: « بنوا ».
٥ – في الأصل: « المنحنا ».
٦ – توجد هذه القصيدة المخطوطة في المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء تحت رقم (٢٦٩) ورقة ٢٣.
٧ – انظر: « عقود الدرر » لعاكش، ورقة ١٧.
٨ – عقود الدرر، ورقة ١٧.
٩ – انظر: « أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الفكر والأدب بجنوبي الجزيرة العربية » ٤٠.
و: « الحياة الفكرية والأدبية بجنوبي البلاد السعودية (١٢٠٠-١٣٥١هـ) ».

المصادر

،

والمراجع

أولاً : المخطوطـــات

- البغوي ، « تفسيره » ، مخطوط شرح على غلافه الداخلي ، توجد هذه النسخة الأصلية لدى الشيخ علي بن محيا ببللحمر .
- جحاف ، لطف الله : « درر نحور الحور العين بسيرة الإمام المنصور » توجد منه نسخة مصورة بجامعة الملك سعود ، بدون رقم .
- الحفظي ، أحمد عبد القادر : قصيدته المخطوطة ، توجد ضمن المجموع رقم (٢٦٩) ، المكتبة الغربية بجامع صنعاء الكبير .
- الحفظي ، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد : « نسب الفقهاء آل عجيل » نسخة خطية توجد لدى عبد الخالق بن سليمان الحفظي ، أبها ، تاريخ النسخ (١٣٠٩هـ) .
- الخزرجي ، أبو الحسن علي بن الحسن : « تحفة الزمن في أخبار ملوك اليمن » ، مخطوط ، توجد منه نسخة لدى المحقق ، بدون رقم .
- الذكير ، مقبل عبد العزيز : « حوادث عسير واليمن والحجاز » ح١ ، دارة الملك عبد العزيز ، قسم المخطوطات ، رقم (٥٦٩) ، الرياض ، بدون تاريخ .
- الذكير ، مقبل عبد العزيز . «العقد الممتاز في أخبار تهامة والحجاز » ح٢ ، دارة الملك عبد العزيز ، قسم المخطوطات ، الرياض ، رقم (٥٦٩) ، بدون تاريخ .
- السبتي ، « الزبد» : مخطوط شرح على غلافه الداخلي ، توجد هذه النسخة لدى عمر غرامة العمروي .
- أبو شاتي ، عبده بن هادي . « سؤال أجاب عليه ابن عبد القادر » مخطوط ، جامعة الملك سعود ، قسم المخطوطات ، المكتبة المركزية ، رقم (٣٣١ / ٣م) .
- عاكش ، الحسن بن أحمد عاكش : « عقود الدرر في تراجم علماء القرن الثالث عشر » ، مخطوط ، توجد نسخة منه بقسم المخطوطات ، جامعة الملك سعود ، رقم (١٣٣٤) أصل .

- العمودي ، عبد الله بن علي العمودي : « تحفة القارىء والسامع في اختصار تاريخ اللامع » نسخة مخطوطة ، توجد لدى الباحث .

- العمودي ، عبد الله بن علي العمودي : « نبذه في الأنساب لمن سكن بحضرموت » مخطوط . يوجد أصله لدى إبراهيم بن عبد الله العمودي ، بدون رقم .

- النووي ، « منهاج الطالبين » ، مخطوط ، شرح على غلافه الداخلي ، توجد هذه النسخة لدى المحقق ، بدون رقم .

- اليمني ، السيد محمد الشلي : « السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر » ، مخطوط ، توجد نسخة منه بمكتبة د . محمد حسن العمري ، بأبها .

ثانياً : الوثائق

- الأهلون في رجال ألمع . «عهد مخطوط يتضمن اتفاق هؤلاء الأهلين على إقامة الشريعة الإسلامية في بلادهم في العقد السادس من القرن الثاني عشر» ، يوجد لدى الباحث بدون رقم .

- ابن سعود ، سعود بن عبد العزيز بن محمد . «رسالة منه إلى الأمير طامي بن شعيب بشأن أشراف آل زهر بقحطان » ، مخطوطة ، توجد صورة منها لدى الباحث ، بدون رقم .

- شاعر مجهول . «قصيدتان مخطوطتان ملحونتان تصوران بعض حروب المكرميين في نجران مع مجاوريهم »، توجدان في مكتبة محمد حسن غريب الخاصة برجال ألمع ، إحداهما برقم ٤٨ ، والأخرى بدون رقم .

- ابن عبد الوهاب ، عبد الله بن محمد . « رسالة منه في شأن أشراف آل زهر برفيدة قحطان » ، مخطوطة ، توجد صورة منها لدى الباحث ، بدون رقم .

- عهد خطي يروي نسب آل فاهمة بمحائل عسير ، توجد نسخة خطية منه لدى الباحث بدون رقم .

- الغامدي ، حسن بن عبد الرحمن . « رسالة خطية منه إلى ولده علي بن حسن» ، توجد لدى صالح بن محمد بن صالح ، قرية الهملة بغامد .
- مجهول . « ورقة مخطوطة في حال بكري بن محمد وغيره » ، توجد لدى الباحث ، بدون رقم .

ثالثا : مراجع أخرى غير منشورة

- الأحمري ، سعيد بن عبد الرحمن : « آل عائض بن دغيم » ح١ ، بحث علمي لم ينشر ، وهو مكتوب على الآلة الكاتبة .
- الأسمري ، سعيد بن عوض آل رداد : « تاريخ رجال الحجر » ، بحث علمي لم ينشر ، وهو مكتوب على الآلة الكاتبة .
- الأسمري ، عوض بن خزيم آل سرور : « قبيلة آل مارد : نسبها ، وجانب من تاريخها » ، بحث علمي لم ينشر ، وهو مكتوب على الآلة الكاتبة .

رابعاً : المقابلات الشخصية

- عبد الله ، عبد الخالق بن محمد . مقابلة شخصية معه في ٩ / ٩ / ١٤٠٠هـ بقرية بشامة بجبل البلس بخثعم .
- آل مسبل ، عازب بن سعيد . حديث شخصي معه في ٤ / ٢ / ١٤١٥هـ بأبها .

خامساً : الدوريات

- الجاسر ، حمد : « حباشة : أشهر أسواق تهامة قديما » ، مجلة العرب ، ح٥,٦ ، س٢٠ (ذو القعدة والحجة ١٤٠٥هـ) ص ص ٢٨٩ - ٢٩٣ .

الجاسر ، حمد : « مع الموسوي المكي في رحلته (٨) : نزهة الجليس ، ومنية الأديب الأنيس » ، مجلة الفيصل ع٢٣٠ ، س٢٠ (شعبان ١٤١٦هـ) ص ص٣٥ - ٣٧ .

- ابن حميد ، عبد الله بن علي : « قبائل الحجر أفخاذها وبلادها » ، مجلة العرب ، ح٢,١ س٩ (رجب وشعبان ١٣٩٤هـ) ص ص٥٩-٦٩ .

- أبو داهش ، عبد الله بن محمد : « بيوتات العلم بقبائل رجال الحجر » مجلة العرب ح٨,٧ ، س٢٨ (المحرم وصفر ١٤١٤هـ) ص ص٤٦١-٤٧٨ .

- أبو داهش ، عبد الله بن محمد : « بيوتات العلم بقبائل رجال الحجري » ، مجلة العرب ، ح٩ ١٠ ، س٢٨ (الربيعان سنة ١٤١٤هـ) ص ٦٠٣-٦١٨هـ .

- شريف ، عبد الرحمن : « مناخ إقليم جنوب غرب المملكة العربية السعودية » ، مجلة الدارة ، ع١ ، س٢ (ربيع الأول ١٣٩٦هـ) ص١٣١ .

- الصنعاني ، محمد بن إسماعيل الأمير : « رسالته إلى عبد الهادي بن بكري العجيلي » حوليات سوق حباشة ، ع١ ، س١ (١٤١٦هـ) ص ص ١٣٣-١٥٢ .

- عسيري ، علي آل عمر : « في وادي عياء آثار شاهدة لأجيال بائدة » ، الجنوب ، ع٤٧ ، س٤ (ذو القعدة ١٤٠٧هـ) ص ص ٢٩-٣٤ .

العمروي ، عمر : « أشهر أودَية بلاد الحجر وجبالها » مجلة العرب ، ج٩,١٠ ، س١١ (الربيعان سنة ١٣٩٧هـ) ص ص ٦٦٨-٦٨٢ .

- العمروي ، عمر : « حول قبيلة الحجر » ، مجلة العرب ، ح٩ ، ١٠ ، س١٠ (الربيعان١٣٩٦هـ) ص ص٧٤٦-٧٤٩ .

- غريب ، محمد حسن : « حول ديوان نفحات من عسير » ، مجلة المنهل ، ح٨ ، س٤١ ، مح٣٦ (شعبان ١٣٩٥هـ) ص ص ٦١٠-٦١٥ .

- ابن كردم ، سعيد بن علي : « الحباب ، فروعها ، وبلادها » مجلة العرب ، ح٧,٨ ، س٢٧ (محرم وصفر ١٤١٣هـ) ص ص٥٥١-٥٥٥ .
- مجهول : « الخليف والخُلف » المنتدى ، ع١ (١٤١٦هـ) نادي الباحة الأدبي ص ص ٢٧-٣٨ .
- المرشدي ، عبد الرحمن بن زبن : « غامد : فروعها ومنازلها » مجلة العرب ، ح٣,٤ ، س٢٧ (رمضان وشوال ١٤١٢هـ) ص ص٢٥٣-٢٦١ .
- المرشدي ، عبد الرحمن بن زبن : « غامد وزهران ، وبنو عمرو » ، مجلة العرب ح٣,٤ ، س٣٠ ، (رمضان وشوال ١٤١٥هـ) ص ص ٢٢٣-٢٣٤ .
- ابن ناشع ، محمد عبد الله : « اعرف بلادك » ، مجلة صوت الظاهرة ، نشرة مدرسية ، تصدرها مدرسة الظهارة المتوسطة ببني شهر ، ع٢ (١٣٩٦هـ-١٣٩٧هـ) ص١٠ .
- النعمي ، هاشم بن سعيد : « رجال الحجر » ، مجلة العرب ، ح١,٢ ، س٢٥ (رجب وشعبان ١٤١٠هـ) ص٧٥ .
- النعمي ، هاشم بن سعيد : « وادعة : نسبها وبلادها » مجلة العرب ، ح٩,١٠ ، س٢٧ (الربيعان ١٤١٣هـ) ص ص٦٠٢-٦٠٥ .
- الوادعي ، محمد بن مهاوش : « مواضع في منطقة ظهران الجنوب » ، مجلة العرب ، ح٣,٤ ، س٢٨ (رمضان وشوال ١٤١٣هـ) ص ص٢٠٦-٢١١ .

سادساً : المطبوعات

- ابن الأثير الجزري : « جامع الأصول في أحاديث الرسول » ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، مط الملاح ، لبنان (١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) .
- إدارة تعليم محايل عسير : « مسيرة التطور في محائل عسير » ، ط١ ، مط مازن - أبها ، بدون تاريخ .

- الأزرقي ، أبو الوليد محمد بن عبد الله : « أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار » ، تحقيق رشدي الصالح ملحس ، ط م ، دار الأندلس ، بيروت (١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م) .
- الأشرف بن رسول : « طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب » ، تحقيق ك . و . سترستين . مط الترقي ، دمشق (١٣٦٩هـ / ١٩٤٩م) .
- الأنصاري ، عبد القدوس : « مع ابن جبير في رحلته » ، ط١ ، مط العربية الحديثة ، (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) .
- الأهدل ، عبد الرحمن بن سليمان . « النفس اليماني » تحقيق ونشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنية ، صنعاء (١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م) .
- البركاتي ، شرف عبد المحسن : « الرحلة اليمينة » ط٢ ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، دمشق ، بيروت (١٣٨٤هـ/ ١٨٦٤م) .
- ابن بطوطة ، « تحفة النظار في غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار » (رحلتة) ، ط١ ، مط وادي النيل ، القاهرة (١٢٨٧هـ) .
- البهكلي ، عبد الرحمن بن أحمد : « نفح العود في سيرة الشريف حمود » ، تحقيق محمد بن أحمد العقيلي ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز (٢٢) ، مط دار الهلال للأوفست - الرياض (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) .
- ترسيسي ، عدنان : « اليمن وحضارة العرب مع دراسة جغرافية كاملة » ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ .
- ثقفان ، عبد الله بن علي : « هذه بلادنا : سراة عبيدة » ، مط جامعة الملك سعود - الرياض (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م) .
- الجاسر ، حمد : « في سراة غامد وزهران : نصوص ، مشاهدات ، انطباعات » ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، مط المتنبي ، بيروت (١٣٩١هـ/ ١٩٧١م) .
- ابن جبير : « رحلة ابن جبير » ، دار صادر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت (١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م) .

- الجعدي ، عمر بن علي بن سمرة « طبقات فقهاء اليمن » ، ط٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) .

- ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي . « إنباء الغمر بأبناء العمر » ، ط٢ ، مط دار الكتب العلمية ، بيروت (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م) .

- ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي : « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، مط المدني مصر ، دار الكتب الحديثة .

- الحجري ، محمد بن أحمد : « مجموع بلدان اليمن وقبائلها » ، تحقيق إسماعيل بن علي الأكوع ، منشورات وزارة الإعلام والثقافة ، ط١ ، مط دار النفائس . بيروت (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) .

- الحريري ، وهبي : « عسير : تراث وثقافة » ط١ ، مط شركة العبيكان (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) .

- الحسيل ، إبراهيم بن أحمد : « غامد وزهران ، وانتشار الأزد في البلدان » ، شركة دار العلم للطباعة والنشر ، بدون تاريخ .

- الحسين ، يحيى : « غاية الأماني في أخبار القطر اليماني » ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، [١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م] .

- الحفظي ، محمد بن أحمد : « اللجام المكين ، والزمام المتين » تحقيق عبد الله أبو داهش ط١ ، مط مازن - أبها (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) .

- الحفناوي ، مصطفى : « ابن سعود ، سياسته ، حروبه ، مطامعه » عن كتابي « وليمز وآرمسترنغ » بتصرف ، ط١ ، مط المصرية ، القاهرة (١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م) .

- حمزة - فؤاد : « في بلاد عسير » . مط دار الكتاب العربي القاهرة (١٣٧١هـ/ ١٩٥١م) .

- الحموي ، ياقوت : « معجم البلدان » ، دار صادر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) .

- الخزرجي ، علي بن الحسن : « العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية » ، تحقيق محمد بسيوني عسل ، مط الهلال ، مصر (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م) .

- أبو الخير ، عبد الله مرداد : « المختصر من كتاب نشر النّور والزّهر » ، اختصار محمد سعيد العامودي ، وأحمد علي ، مؤسسة مكة للطباعة والإعلام ، مطبوعات نادي الطائف الأدبي .

- أبو داهش ، عبد الله بن محمد : « أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الفكر والأدب بجنوبي الجزيرة العربية » ، ط١ ، مط الشريف ، توزع مكتبة دار الحكمة ، الرياض (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) .

- أبو داهش ، عبد الله بن محمد : « الحياة الفكرية والأدبية بجنوبي البلاد السعودية (١٢٠٠ - ١٣٥١هـ) ط٢ ، مط الجنوب - أبها (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) .

- الدوسري ، شعيب بن عبد الحميد بن سالم : « إمتاع السامر بتكملة متعة الناظر » مط الحلبي ، القاهرة (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥م) .

- ابن الديبع ، عبد الرحمن بن علي : « قرة العيون بأخبار اليمن الميمون » ، تحقيق محمد ابن على الأكوع الحوالي ، مط السلفية ، مصر ، بدون تاريخ .

- الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان :« سيرة أعلام النبلاء » ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ومحمد نعيم العرقسوسي ، ط٨ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) .

- بنو رزام : « سوق سبت بني رزام : الماضي والحاضر » ط١ ، مط الثغر ، خميس مشيط ، بدون تاريخ .

- رفيع ، محمد عمر : « في ربوع عسير » ، دار العهد الجديد للطباعة ، القاهرة ، (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م) .

- الريحاني ، أمين : « تاريخ نجد وملحقاته » ط٤ ، مط دار الريحاني ، بيروت (١٤٠٢هـ/ ١٩٧٢م) .

- زبارة ، محمد بن محمد : « ملحق البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .

- الزركلي ، خير الدين : « الأعلام » ، ط٦ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) .

- آل زلفة ، محمد بن عبد الله : « معرض وثائق تاريخ عسير » ، ط١ ، مط الشريف بدون تاريخ .

- الزهراني ، علي بن صالح : « المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران » ، ط۱ ، مط المتني، بيروت ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض (١٣٩١هـ/ ١٩٧١م) .

- السخاوي ، محمد بن عبد الرحمن : « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ .

- السمعاني ، عبد الكريم بن محمد : « الأنساب » ط۲ ، نشر محمد أمين دمج ، بيروت، (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) .

- شاكر ، محمود : « عسير » ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، بدون تاريخ .

- الشرجي ، أحمد بن أحمد : « طبقات الخواص ، أهل الصدق والإخلاص » ط۱ ، مط دار المنهل ، بيروت (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) .

- الشوكاني ، محمد بن علي : « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، بدون تاريخ .

- العارف ، يوسف بن حسن : « أضواء على مذكرات سليمان شفيق كمالي باشا » ، ط۱ ، مط دار العلم جده ، منشورات نادي أبها الأدبي (١٤١١هـ/ ١٩٩٠م) .

- عبد الجبار ، عبد الله : « التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية » مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة (١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م) .

- عبد الغني ، عارف : « تاريخ أمراء مكة المكرمة » ، ط۱ ، مط البشائر للطباعة والنشر ، دمشق (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م) .

- آل عبد المحسن ، إبراهيم بن عبيد : « تذكرة أولي النهى والعرفان » ، ط۱ ، مط مؤسسة النور ، الرياض ، بدون تاريخ .

- عسيري ، علي بن أحمد : « عسير من ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م - ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م » ، ط۱ ، مط شركة العبيكان ، الرياض (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) .

- العصامي المكي ، عبد الملك بن حسين : « سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي » ، مط السلفية ، مصر ، بدون تاريخ .

- العقيلي ، محمد بن أحمد : « نجران في أطوار التاريخ » ، ط١ ، مط دار البلاد ، جده (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) .

- العمروي ، عمر غرامة : « بلاد رجال الحجر » ط١ ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض (١٣٩٧هـ/ ١٩٨٧م) .

- العمروي ، عمر غرامة : « قبائل إقليم عسير في الجاهلية والإسلام » ط١ ، لم تذكر المطبعة ، منشورات نادي أبها الأدبي (١٤١١هـ/ ١٩٩١م) .

العمودي ، عبد الله بن علي : « الأدارسة في تهامة (١٣٤١هـ-١٣٤٧هـ) » ، تحقيق عبد الله أبو داهش ، ط١ ، مط مازن ، أبها (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م) .

- العيدروسي ، محيى الدين عبد القادر : « تاريخ النور السافر » ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) .

- الفاسي المكي ، محمد بن أحمد : « العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين » ، تحقيق محمد حامد الفقي ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) .

- ابن فهد الهاشمي القرشي ، عز الدين بن عبد العزيز : « غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام » ، تحقيق فهيم شلتوت ، ط١ ، مط شركة مكة للطباعة والنشر ، مكة المكرمة (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م) .

- ابن فهد ، محمد بن محمد : « إتحاف الورى بأخبار أم القرى » ، تحقيق عبد الكريم علي باز ، ط١ ، مط شركة مكة للطباعة والنشر ، مكة المكرمة ، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) .

- القرماني ، أحمد بن يوسف : « أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ » ، عالم الكتب بيروت ، وغيرها ، طباعة حجرية ، بدون تاريخ .

- ابن القنفذ ، أحمد ، وآخرون : « ألف سنة من الوفيات » تحقيق حمد حجي ، الرباط (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٩م) .

- القّنوجي ، صديق بن حسن : « أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم » ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ .

- ابن كثير : « البداية والنهاية » ، مكتبة المعارف ، بيروت (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠) .

- ابن المجاور ، يوسف بن يعقوب : « صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز » (تأريخ المستبصر) صححه اوسكر لوفغرين ، مط بريل ، ليدن ، ألمانيا (١٣٧١هـ/ ١٩٥١م).
- المحبي ، محمد : « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » ، دار صادر ، بيروت .
- مستشفى رجال ألمع ، « التقرير السنوي للخدمات الصحية بمنطقة رجال ألمع لعام ١٤١٢هـ » ، مط الجنوب ، أبها .
- - مسفر : عبد الله بن علي : « أخبار عسير » ، ط١ ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، بيروت (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م) .
مسفر ، عبد الله بن علي : « السراج المنير في سيرة أمراء عسير » ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).
- مصطفى ، إبراهيم ، وآخرون : « المعجم الوسيط » ، المكتبة العلمية ، طهران ، بدون تاريخ .
- ابن معبر ، محمد أحمد : « مدينة جُرش من المراكز الحضارية القديمة » ، ط١ ، دار جرش للنشر والتوزيع ، خميس مشيط ، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) .
ابن منظور ، جمال الدين محمد : « لسان العرب » ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، مط كوستاتسوماس ، مصر ، بدون تاريخ .
- النعمي ، أحمد بن حسن بن عبد الله : « عسير في مذكرات سليمان الكمالي » ، مط الحديثة ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- الهمداني ، أبو بكر أحمد بن محمد : « مختصر كتاب البلدان » مط بريل ، ليدن ، ألمانيا (١٣٠٢هـ/ ١٩٨٢م) .
- الهمداني ، الحسن بن أحمد بن يعقوب : « الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير » ، تحقيق محب الدين الخطيب ، مط السلفية ، مصر (١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م) .
- الهمداني ، الحسن بن أحمد بن يعقوب : « صفة جزيرة العرب » تحقيق محمد بن عبد الله بن بليهد النجدي ، مط السعادة مصر ، (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م) .
- الهمداني ، محمد بن حاتم اليامي : « كتاب السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن » ، تحقيق ركس سمث ، جامعة كمبردج ، بدون تاريخ .

- الوادعي ، محمد مهاوش مسفر : « ظهران الجنوب » ، مط مازن ، أبها ، بدون تاريخ .

- الوصال البشري ، محمد بن مسلط بن عيسى : « تاريخ عسير في رسالة إبراهيم بن علي زين العابدين الحفظي » ط٥ (١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ، بدون معلومات أخرى للنشر .

- وهبه ، حافظ ، « جزيرة العرب في القرن العشرين » ط٥ ، مط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) .

- اليافعي اليمني ، عبد الله بن أسعد ، « مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان » ، ط٢ ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة (١٤١٣هـ/١٩٩٣م) .

- اليمني ، نجم الدين عمارة بن علي : « تاريخ اليمن : المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد ، وشعراء ملوكها وأعيانها ، وأدبائها » ، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ، ط٣ ، مط العلم (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) .

- يونس ، سيد أحمد : « لمحات من تاريخ عسير القديم » ، ط١ ، منشورات نادي أبها الأدبي (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) .

الملاحق

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على نبينا محمد واله وصحبه الطيبين الطاهرين والراشدين ومن اتبع

رضوان الله ... ومن الراشدين ومن عصا الله فهو من الخاسرين [illegible] النجم من عمل [illegible] ومن اسا فعليها وما ربك بظلام للعبيد

[illegible] وتعالى [illegible] الرسول ان يهدي خلقه [illegible] الحق [illegible] وبعد

انه لما كان اخر الزمان كثرت الخصم والاعنات وكانت بلاد قحطان عارية من المساجد ومن شرايع الاسلام ولا فيها قايم حق يفصل بين الحلال والحرام وبعد فانه

اجتمعوا كبار قحطان وشيوخهم جميع واجتمعوا سبعين خيال وعزموا الى عند القاضي زيد ابن يوسف وهو مع الامام مطهر ابن محمد واهدوا له هدية كبيرة واحرموا عنده

[illegible] من طعام [illegible] الان [illegible] القاضي زيد ابن يوسف وهو كان مع الامام مطهر [illegible] الاعظم وحاكم شريعة الله بين الفصيح والعجم وهو [illegible] الامام

[illegible] الامام ان المشايخ [illegible] القاضي زيد [illegible] من القران العظيم والعلم الشريف وسار معه من اصحابه

من الذين يلوذ بالقاضي عبيده وخدامه وحاشيته حاشية كبيرة قدر مية [illegible] وجا حقوق البلاد للقاضي زيد وجعل له ثلث الزكاة ولعربيته ثلث

للمساكين وثلث للامام من تحت يد القاضي [illegible] فلما وصلوا بالقاضي زيد الى بلاد قحطان [illegible] ثم انهم اجتمعوا

ان يجعلوه في الحرجة حيث انها متوسطة لبلاد قحطان وجعلوا [illegible] قحطان على انفسهم [illegible] ممتثلين لما حكم به القاضي على ما نطق به القران العظيم والكتاب

وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا يتسابقون اليه من ذهبان الى ظهران للشرع ويسوقون الحقوق المذكورة اليه وبعد ذلك [illegible] ثلاث من [illegible]

ما حل القاضي في بلاد قحطان [illegible] القضاه [illegible] وجعلوا لهم [illegible] القضاه [illegible]

[illegible]

إحدى الوثائق المتصلة بالقاضي زيد بن يوسف (ق ١ أ)

[illegible] ... وفيها ابن هران القاضي

من بوقه وان القضاة ... قحطان وان قحطان ما يعيبون على القضاة او شاكي او ايمان ولا زيب ولا يحيلون عن علو القضاة من ... والامن واشتهر انها

عليهم ... وان القضاة ... كبيرهم وصغيرهم وعبيدهم ... ثقات علامن جاء عليهم ... على القضاة ... ولا يحصوا عليهم ولا يقع عليهم ...

ولا على القضاة ... من صاحب ... والامر ... انما كانت ...

... للقضاة ... وثلاث ... بني جابر ...

حسان ابن جابر ولترثيبه وابن ... ومن عباده ابن زياد ... والي عبد الله

... ابن جمعان ... ومن ... ابن محمد ومن بني ... غانم ابن علي والمهر ... فاضل

بيه وهم ... وان بشر على ابيه ... جميع وعبد القادر على

ومن سفيان ابن ... احمد ابن عون ... على ابيه ... جميع

ابن ... ومن ... وان ... قحطان ... جميع

من بني جلال ابن سلمان ... جميع ومن ... ابن جبير وابن الوحش سلمان ومن بني ... ومن الحنابش والكا...

... والاعراب والاشانعي ... ومن بني ... على القضاة ... والاسخط والا...

الصيلان كلهم ... قحطان القضاة ممن ذكر ... على القضاة من بلاد قحطان ...

... النائب ... للقضاة ... عند القضاة ... والا ...

... عند القضاة فيما ذكر من ... على القضاة ما ... للقضاة ... من القبايل

... للقبلا انهم ... ان القضاة ... وان عاد للقضاة من ينتطون من اليمن والشام

... بارك الله فيه وفي ذريته ... ومن قال بلا

على ... ذلك الواقف عليها بتاريخ شهر صفر سنة ثمان وتسع مائة ... مشهد بذلك ...

محمد ابن ... وابن حبيجان على ابن ... والواقدي علي ابن مسعود ... ابن مكابس ... ناجح والفقيه

احمد ابن هادي ... ونقلها السيد احمد ... ونقلها الشريف احمد ابن علي ابن نضات ونقلها الشريف

ضبطها ... وزولها السيد محمد ابن عبد الله ابن محمد الطويل ... لا زاد ولا نقص وامها

... وصلى الله وسلم على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل وكفى

كتبته وقد انتقلت يوم كتبته ... ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

(ق ١ ب)

.المتوفى عنها زوجها وهي غير حامل فعدتها اربعة اشهر وعشرة ايام ان كانت حرة وان كانت امة فشهران وخمسة ايام وان كانت ايسة او صغيرة فعدتها ثلاثة اشهر وامرأة ارتفع حيضها وما تدري ما رفعه فعدتها اثنا عشر شهرا تسعة للحمل وثلاثة للعدة فان كانت تدري ما رفعه فتتربص حتى تزول الريبة وان عاد الحيض فتحيض الثلاثة معتدة بالقروء فكل امرأة طلقها زوجها وهي من ذوات الحيض فعدتها ثلاثة قروء قيل القروء الاطهار وقيل الحيض والعمل عليه عندنا الحيض وامرأة المفقود ان كان الغالب عليه الهلاك فعدتها اربع سنين ثم تعتد للوفاة وان كان الغالب عليه السلامة فيضرب لها الحاكم مدة ما يعيش فيها مثله ثم تتزوج

شرط النكاح

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين يعلم الواقف على هذا الخط والناظر اليه ان ابن فاهمه شريف فاطمي من ذوي الحسين وانما سموا بال فاهمه الان جدهم تزوج بامراة يقال لها فاهمه وهم في بلاد يسمون الولد باامه فشملتهم جدتهم فاهمه فلان نبين لكم يا واقف على الخط والناظر اليه وتحقق لكم الكلام فقد قال الله تعالى قل لا اسالكم عليه اجرا الا المودة في القربى الايه وقال عليه الصلاة والسلام لو صفن رجل بين الركن والمقام يعبد الله الف عام وفي روايه مايتين عام ثم توفي على ذلك العباده ولقي الله معاديا لرجل واحد من اهل بيتي للقي الله وهو غضبان عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الله من دخل فينا بغير نسب ومن خرج منا بغير سبب

« عهد خطي يروي نسب أسرة آل فاهمة بمحايل عسير » (ق ١ أ)

وفي الحديث أنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ليفرقون
نبي في اقطار الارض منهم من يعرف ومنهم لا يعرف الله يتم على من
ولا تميتهم حتى تسبق عليهم التوبة وفي حديث اخر الناس تبع
لقريش [illegible] وقريش تبع لبنو هاشم وبنو المطلب فهذا ما
ورد من الاية والاحاديث فكتبنا منهم نسبة واحد وجدهم وا
حد فنحيط بمحمد ابن عمر ابن محمد ابن احمد ابن عمر ابن عبد الله ابن
الوشيلي ابن احمد ابن عيسى ابن علي ابن عيسى ابن موسى ابن عبد الله
ابن المبارك ابن بدر ابن محمد ابن ابو القاسم ابن علي ابن احمد ابن عيسى
ابن علي ابن موسى ابن الامام علي الرضا ابن الامام موسى الكاظم
ابن الامام جعفر الصادق ابن الامام محمد الباقر ابن الامام علي
زين العابدين ابن الامام الحسين الشهيد الكربلي ابن الامام علي
ابن ابي طالب ابن عبد المطلب ابن هاشم ابن عبد مناف ابن قصي
ابن كلاب ابن مرة ابن كعب ابن لوي ابن غالب ابن فهر ابن مالك
ابن النضر ابن كنانة ابن خزيمة ابن مدركة ابن الياس ابن مضر ابن
نزار ابن معد ابن عدنان [illegible] فهذه نسبته واما الجد الاول
الذي خرج من ارض الشام يقال له مبارك ابن بدر خرج من وا
دي الصفرا الى اليمن في سنة خمسمائة من بعد الهجرة النبوية

(ق ١ ب)

بسم الله الرحمن الرحيم هذا السؤال لسيدنا الفقيه العلامة محمد

بن هادي ابوشاتي صاحب حلي بن يعقوب ارسله الى الفقيه العلامة احمد

بن عبد القادر الحفظي نفع الله بعلومه امين وهو هذا

ماذا يقول الحبر مفتي عصرنا ۞ الشيخ قدوتنا ابن عبد القادري

شمس العلوم امامنا وولينا ۞ وولي ذي العرش المجيد الغافري

فيما يبلغنا الرواة عن النبي ۞ علم الهدا اليثربي الطاهري

يروون عنه ان ميت جمعة ۞ يوقا من الهول الشديد الباهري

والليلة الغراء مثل نهارها ۞ جاءت بها الاخبار وسط دفاتري

وبان ميت يومها وليلها ۞ سيقيه ربي فتنة المقابري

هل ذا على الاطلاق يشمل كلمن ۞ قد مات عاص لله او كافري

ام في الذين قد مات من اهل الهدا ۞ المؤمنين بذا النوال الغامري

ولاهل الحديث اتى ببعض الامهات ۞ السنن عن خير الانام الحاشري

هات الجواب مفصلا يا سيدي ۞ فاليك راجع في جميع مصادري

واستر عيوبا في النظام وعطها ۞ عطارف الاغضاء وحلم ساتري

وافا نظامي والسلام عليكم ۞ ما دام تسبيح وذكر الذاكري

الجواب

وافا سؤال الحبر حبيب الخاطري ۞ كالبدر نورا او كغيث ماطري

احيا الموات بلفظه وبحفظه ۞ لما تبسم في ثغور مساطري

فكأن اغصان حالي عندما ۞ هبت نسايمه بسكر عاطري

« سؤال خطي بعث به أبو شاتي صاحب حلي ابن يعقوب إلى أحمد الحفظي »

الحمد لله رب العالمين وبعد فإن أهل [illegible] جددوا العهد على إقامة الشريعة المحمدية
الله الذي لا إله إلا هو على [illegible] وهي الطريقة المحمودة ونصبوا الفقيه [illegible] هادي
[illegible] على [illegible] الشريعة المطهرة وأقاموا الفقيه عبد القادر بن بكري على الإمامة وراتب
المسجد وله مشارفة [illegible] أن لا [illegible] بعد المغرب ولا للنساء العرائس ومن عصى فعليه [illegible]
[illegible] بحضور جمع كثير منهم جابر بن محمد ومحمد بن عيسى ومساعد وحسن بن شبير
ومحمد بن طحلان وأحمد بن فايع وأحمد بن علي ومحمد بن [illegible] وعلي بن نافع وإبراهيم بن أحمد
ومحمد بن طريفة والسيد حسن بن [illegible] وعلي بن حسن بن شبير ومشارك بن إبراهيم وعيسى بن عبد الله
بن [illegible] ومحمد بن هادي مصري ومن ذكرنا من الجماعة ضمنا للفقيه مع ضمانة الأوقاف
والشعبي ومن أمثالهم
وذكر [illegible] الإسلام [illegible] أحمد بن عبد القادر [illegible] سنة ١١٥٩
[illegible] ولا [illegible] وأن لا [illegible] في البلد من [illegible] إلى [illegible]
[illegible] على [illegible] ولا يخلطوا الرجال بالنساء [illegible] ولا أحد من الرجال
[illegible]

عهد خطي حرّره الأهلون في رجال ألمع عام (١١٥٩هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا خطنا بايدينا الاشراف اما بعد الشرفونا على محمد ابن الشيخ محمد ابن عبد الوهاب ... سعود ومن بعدهم من الملوك سعيد بن مسلط وعلي مجثل وعايض ابن مرعي ومحمد بن عايض وثبت العلماء الربانيين زين العابدين وغيره من قضاة المسلمين فاثبتنا ما اثبتوه من حقوق الاشراف وهو التنزيه من البر وغيره والقرابة عليهم من النوائب ... قال وابنه محمد عملها ابو ملحم وصلى الله على محمد ...

« من وثائق أسرة الأشراف آل زهر بقحطان »

المحتويات

رقم الإيداع ١٧/٢٢٤٧٠
٩٧٧-٠٣٦٠-٧٩٩-٢